

اللغة الأم، والواقع اللغوي في الجزائر

أ.د صالح بلعيد

عضو المجلس الأعلى للغة العربية.

المقدمة: تلعب اللغة دوراً حيوياً في كلّ مجتمع؛ كونها وسيلة التعبير والتواصل والوجود، وإنّها السلطة من خلال العلاقات التي تحدّدتها القوانين، وأداة توحيد الأمة فكرياً وسياسياً، ورمز للهوية الفردية والاجتماعية والثقافية والتوجيهية، ومدوّنة لحفظ الحضارة وإيصال المعرفة. مرتبطة في المقام الأول بالشخصية، والتي بواسطتها تتميّز الأشياء وتتحدّد، وتعدّ الوجه الحقيقي لكلّ تواصل وطني أو رسمي بين أفراد المجتمع باعتبارها حافظة للّحمة السكان وناطقة باسمهم. ومن هنا تعطي الدول النامية كلّ الأهمية للغاتها بغية تحضيرها وتطويرها، وقد يأتي يوماً يصبح بمقدورها تأدية المهمّة المطلوبة منها بالطريقة المثلى التي تؤديها اللغات الحيّة.

أرغب في البداية الحديث عن تحديد اللّغة الأم، فما هو هذا المفهوم؟

لقد استحدثت اليونسكو يوماً عالمياً للغة الأم وهذا منذ سنة 2000 م.

والهدف منه حماية تراث العالم من الانقراض، وبهذه الشرعية الدولية، رأت أنّ تعلّم اللّغة الوطنية فرض عين، وتعلّم اللّغة الأجنبية فرض كفاية فأعطت للغة الأم كلّ الأهمية، ومن حقّ كلّ الأفراد في العالم أن يأخذوا نصيباً من العلم بلغاتهم.

نشأ مفهوم لغة الأم *Langue mère* مع نهاية الحرب العالمية الثانية حيث بدأت الدول المستعمرة تتال استقلالها، فحصل الحديث عن الهوية والوحدة الوطنية والشخصية والتنمية الشاملة ونظام الحكم "وقد شعرت الدول الحديثة الاستقلال بتعزيز اللّغة الأم بعد أن تضاعل دورها أو كاد يتلاشى أيام حكم المستعمر، وذلك من خلال اعتمادها لغة رسمية للوطن ولغة تعلّم وتعليم¹ " وانجرت في بعضها صراعات حول ترسيم اللّغة الأم في منظومة التربية والتعليم، كما انجر اتجاه تحقيري في بعض البلاد، وما خرجت من ذلك الصراع إلّا بعد تبني لغة أجنبية أو الإبقاء على لغة المستعمر، وعدّتها رسمية، فكانت بعد مدة زمانية لغة الأم لأجيال لاحقة، ومع ذلك فإنّه لم يكتب النجاح التام لكلّ الأمم التي تبنت اللّغة الأجنبية، بل أصبح لها ذلك انتحاراً فلم تحصد من وراء ذلك إلّا الحروب الأهلية.

1- جماعة من المؤلفين، اللغة والتعليم، ط1. بيروت: 2000، الهيئة اللبنانية للعلوم التربوية، دار قابس، ص7.

لم يحصل اتفاق نهائي حول مصطلح اللّغة الأم ، بعدما أطلق جزافاً على اللّغة الرسمية واللّغة الوطنية واللّغة الجهوية، وكلّ تعريف كان مصاحباً بوجهة نظر إيديولوجية، ولذلك تشعب ونال أبحاثاً كبيرة؛ خاصة عند الباحثين الغربيين، حيث أجروا دراسات مهمة بغية تحديدها بعدما أخذت تسميات: اللّغة الأم/لغة المنشأ/اللّغة الوطنية/اللّغة القومية/اللّغة الجهوية... وهذا مع ظهور الطبقات الشغيلة في أوربا والمدّ القومي وظهور الحكم الكنفدرالي بل وصل الأمر أن حمل في بعض المناطق نزعة للاستقلالية (الحكم الذاتي) تحت مظلة الخصوصيات اللغوية كما ساعدت العوامل الجغرافية وفروق البيئة ظهور الاهتمام باللغات الأم. وهكذا نال التعريف دلالات متنوّعة بتتوّع الباحثين في هذا المجال، ونشير إلى بعض التعريفات:

1- التعريف التقليدي: ويمكن أن نسميه التعريف الأولي، وينظر إلى

اللّغة الأم على أنّها لغة الأم بالإضافة في المقابل الفرنسي Langue maternelle وتكون الترجمة الحرفية لغة الأمومة، وفي معناها اللغوي هي تلك اللّغة التي تتلاغى بها أمّ الطفل. أو تلك اللّغة التي يلتقطها من أمه بحكم ملازمته لها في مرحلته الأولى من بداية اكتساب اللّغة، أو الكلام البلدي للطفل والذي يوظفه بصورة عادية في وسطه المنزلي، وهي اللّغة الطبيعية التي يتلقاها دون تدريس. قد يكون هذا المفهوم (المصطلح) في أول ما أطلق صحيحاً، لكنّ المتغيّرات الاجتماعية فنّدت هذا التعريف؛ إذ إنّ الأم المعاصرة أصبحت تغادر البيت للعمل، وتستعين بالحاضنة ابنة البلد/ أو الحاضنة الأجنبية التي لا تعرف

لغة البلد، فالطفل لا يلازم أمه البيولوجية إلاّ ساعات قليلة، فيعيش ساعات وساعات مع الحاضنة ومع التلفاز، ومن هنا فإنّ هذا المفهوم لا يلبيّ التعريف الدقيق للغة الأم، بل ليس متطابقاً في كل المجتمعات، ودون أن نذهب بعيداً نجد أنّ لغة أطفال المهاجرين يتكلّمون لغة غير لغة أمهم الحقيقية، وتعدّ بالنسبة إليهم لغة أم.

2- التعريف المنشئي: نعلم أنّ اللّغة وليدة البيئة، والطفل أسير مجتمعه، فهو لا يتعلّم كلام أمه البيولوجية كما يعتقد البعض، أو كما يدلّ عليه المفهوم اللغوي للغة الأم؛ لأنّ الطفل في مرحلة التلغية ينغمس في الحمام اللغوي عن طريق أبويه أو الوسائل التي يسمع لها يومياً: تلفاز/ ألعاب لغوية، كما قد يسمع في البيت والدين يتكلمان لغتين مختلفتين، ويصبح لسانه مزدوجاً، ويتأثّر بهما وبالشخص الأقرب إليه، وهذا ما يراه كراشن krashen في نظرية الإدخال اللغوي على أنّ قدرة الإنسان على الكلام لا تأتي من التعلّم الواعي الذي ينتهجه، بل من الاكتساب الذي هو معرفة شبه واعية حالما يحتكّ بغيره، ولا يقوم التعلّم الواعي إلاّ بدور المحرّر أو المراقب فحسب. وعلى العموم فإنّ الطفل يأخذ الكلام من البيئة المحيطة به في سنواته الأولى، لأنّ اللّغة عند الأطفال مسألة فضاء، فيتعلّم الكلام في وقت معيّن، واللّغة التي يتعلّمها هي التي يسمعها ممّن يحيطون به. فمثلاً طفل يولد من أب وأم لهم لغة ما، وينشأ في محيط غير لغة الأم والأب فتصبح اللّغة الأم هنا هي لغة الشارع، وهذا ما أقرّه شارل أزنافور في استجواب له نشر في كتيب Le Français dans le monde 1988 pp7-8

هو من أرمينية، ولغة أبيه وأمه أرمينية، وكذلك الحال بالنسبة للهجاء فيستعملون لغة المحيط الطبيعية المخلوطة بما يسمعه من أمه وأبيه (لغة هجينة) وكذلك طفل يعيش أكثر أوقاته أمام التلفاز فتصبح لغة الأم هنا هي اللغة الأولى له.

3- التعريف السياسي: إنّ اللغة الأم ليست أداة اتصال تعبّر بواسطتها عن المفاهيم والأفكار فقط، فهي عنصر جوهري من العناصر المكوّنة للثقافة والفكر والهوية، واللغة الأم التي يقرّ بها هذا التعريف هي التي يرسمها الدستور، وهي لغة أم فوق كلّ الأدّاءات اللغوية التي يتواصل بها المجتمع، وبعدّ باقيها لهجات لا ترقى حظوتها وستخلق بعدها عاميات وتصبح محلّ جدل. ومن هنا فيعول على المدرسة باعتبارها مكاناً لحفظ التوازنات اللغوية الإيجابية في تعميق مفهوم اللغة الأم وهي اللغة الرسمية، كما أنّ المصلحة العامة يجب أن تكون الفاصل في المسائل اللغوية، ولا يجب أن يكون التعدّد اللغوي الذي يؤدّي إلى الفتنة، أو يضعف اللغة الرسمية، باعتبار البيئة القابلة للتدهور هي بيئة متعدّدة اللغات، وتصبح ملوّثة بالخصوص عندما تغطى فيها لغة أجنبية دخيلة على اللغة المحلية. يستهدف التعريف السياسي التوحيد اللغوي الذي هو ترميز للوحدة الوطنية، وتمكين القاعدة من فهم خطاب الحكم المركزي، وإضفاء قيمة على ثقافة مركزية، والحدّ من قيمة الثقافات الجهوية. وفي هذا التعريف كثرت الآراء حتى اختلطت بالجانب الإيديولوجي، إلى أن أطلق على اللغة الرسمية إسمنت الوحدة الوطنية، أو هي الجيش والنظام، وهي القوة والفرض أو اليعقوبية كما هي

الحال في فرنسا¹. ولذلك تعمل كلّ العواصم السياسية على حماية لغتها الرسمية بالقوانين وبالمؤسسات التي تقوم على ترقّيها.

4- التعريف الديني: يقرب كثيراً إلى التعريف السياسي، فيرى أنّ اللّغة من جنس الدين؛ الدين مقدّس، واللّغة التي نزل بها الدين مقدّسة، وتعلوا عن كلّ أشكال التواصل الأخرى، فهي اللّغة الأم، وتمتلك سلطة ملحوظة وتمارس نفوذاً كبيراً، وتعدّ اللّغة النموذجية التي لديها قوة فرض نفسها بسبب ترقّعها عن خصائص اللهجات؛ وهذا مثل العربية عند المسلمين فتعدّ لغة أم بحكم قدسيّتها، فهي من الواجب على اعتبار أنّ الدين الإسلامي نزل بها وما لا يتمّ به الواجب فهو واجب. وأحياناً نجد لغتين من لغات الأم، مثلما يوجد في الهند؛ فالمسلمون لغتهم الأم هي الأوردية، والسيخ لغتهم البنجالية، وهذا تماشياً مع الديانة لكلّ إثنية منها واللّغة الرسمية هي الهندية والأوردية.

5- التعريف الشعبي: اللّغة الأم هي لغة المساواة وتكافؤ الحظوظ، تعمل على تجنّب التمييز بين اللغات والفئات وكلّ لغة تواصل في البلد هي اللّغة الأم، ويمكن أن تتشكّل مجموعات لغوية متعدّدة، وكلّها تأخذ تسمية موحّدة بحكم أن لا تعالي للغة على لغة أخرى، ولو كانت هناك لغة رسمية، رغم ما فيها من تفاوت في فاعلية اللغات ودورها في المجتمع والرقعة الجغرافية التي تتواجد فيها، ومن حيث المشافهة والتحرير. وهذا التعريف يستمدّه بعض الباحثين من

¹ - إنّ اليقوبية سهّلت العمل للغة Le Francien على حساب لغات أخرى، فرسمتها لغة وطنية لأنّها أكثر تداولاً وأبطلت باقي اللغات، وأضحت لغة المركز والصرامة. كما عملت إسبانيا عندما رسمت اللغة القشتالية وهي لغة الأغلبية، وأصبحت معيارية وأبقت على تلهيج اللغات الأخرى، وهي لغات محلية: الكاتلان/الباسك.

اللسانيات التي لا تفرّق بين اللّغة واللهجات، باعتبار كلّ وسيلة تواصل هي لغة وهؤلاء يضيفون بأن كلّ لغة هي لغة أم، وقد يصبح في البلد أكثر من لغة أم.

6- التعريف اللساني: نقول الأستاذة Louise Dabène "هي تلك اللّغة

التي يتلقّاها في المحيط المدرسي مهما تكن الوضعية الشرعية لتلك اللّغة، والتي يعيش فيها التلميذ، ومثّلت لذلك بالعربية بالنسبة للجزائر¹ " فترى الباحثة تؤكد شرطاً أساسياً وهو أن تتلقّى اللّغة في الوسط المدرسي، ولا يكفي أن تكون شفاهية "تكون اللّغة الأم تارة لهجة عربية وتارة عربية، وتارة لهجة بربرية، وهي في الحالتين معاً لغة شفاهية، وقد كان الانتقال إلى الكتابة يتمّ باللّغة الكلاسيكية² ". وما يقصد هنا باللّغة الكلاسيكية هي اللّغة الرسمية التي تعبر عبرها كلّ الأداءات اللغوية الأخرى.

الخلاصة: هكذا تتجاذب هذه التعريفات حسب المنطلق الذي اعتمد كفاتحة للتعريف، ولذا فإن لغة الأم متعدّدة العناصر ومتشعّبة الفروع، ولكنها تعني تلك اللّغة التي تستعمل بشكل طبيعي من قبل جماعة لغوية، ويمكن أن تهذب في المدرسة، وهي لغة البلد والانتماء والهوية التي تستطيع الحيلولة دون الاندماج والتلاشي في الثقافة الأجنبية، تحمل الجوهر اللغوي langagier Substrat والمفاهيم الإيديولوجية، باعتبارها اللّغة الأصل قبل أن يختلط بها غيرها، وليست تلك اللّغة التي يتعلّمها المهاجر بعدما اكتسب لغته الأولى. وقد

¹- Louise Dabène, Repère sociolinguistiques pour l'enseignement des langues. Paris : 1994 Hachette livre.

²- جوليبر غرانغيوم، اللغة والسلطة والمجتمع في المغرب الكبير، ترجمة: محمد أسليم. المغرب:

1995، مكناس، دار الفارابي للنشر، ص78.

تكون في البلد أكثر من لغة أم. اللغة الأم هي المصدر، مثل الكتاب الأول الذي خطه صاحبه، وقد تكون ظاهرة أو مخفية. والمخفية يجب أن يظهر أثرها في التدريس. ويمكن تبسيط مستويات لغة الأم التي تتحدّد في اتجاهين هما:

- اللغة العامة التي يتعلمها الفرد في البيت بهدف التواصل العادي وهي مكتسبة.

- اللغة العلمية والتكنولوجية ويتمّ تعلمها بشكل اختياري ووفق قرارات فردية وحكومية، وتعد زيادة في رأس المال البشري للفرد والمجتمع¹. وهكذا نجد تعريفات للغة الأم متعددة وأحياناً متضاربة، ولكل تعريف نظرة خصوصية، ونلاحظ أنّ كلّ التعريفات تؤكد الآتي:

- أن تكون لغة طبيعية ناطقة.
- أن تتداول في الوسط العائلي أو المحيط أو المدرسة.
- أن ينصّ دستور البلد على ترسيمها أو وطنيتها.
- أن يكون لها نظام خطي.
- أن تدرس في المدرسة.

وبعد هذه الخلاصة، يجدر بنا أن نعيّن اللغة الأم من خلال الواقع اللغوي في الجزائر.

الواقع اللغوي في الجزائر: إنّ الخريطة التعبيرية توضح لنا بأن درجة استعمال اللغات في الجزائر ليس متماثلاً، فالدارجات الجزائرية تهيمن على السوق الشفوية، وتحقق تواصلاً بين المجموعات اللغوية المختلفة فالعربية

¹ - محمد مرياتي "اثر اللغة العلمية والتكنولوجية في النمو الاقتصادي العربي" مجلة أسئلة اللغة. الرباط: 2002، منشورات معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، ص19.

الفصيحة واللغة الفرنسية لا تستعملها إلا أقلية من المثقفين، والأمازيغية أمازيغيات؛ وهي شتات لها مناطقها النافذة وتأدياتها المختلفة التي لا تتفاهم مع بعضها البعض. ومن هذا التقسيم يمكن إجمال الوضع اللغوي الجزائري كما يلي:

1- اللغات ذات الانتشار الواسع: العاميات أو الدارجات العربية، وهي

متنوعة، ولكنها تتحكم إلى قواسم مشتركة.

2- اللغات المحلية: الأمازيغية بمختلف تأدياتها ولهجاتها.

3- اللغات الكلاسيكية: العربية الفصيحة واللغة الفرنسية.

وهكذا فإنّ الطفل الجزائري يكون مزوداً بنسق لغوي خليط: عربية دارجة أو أمازيغية، فإذا انتقل إلى الحضانة فإنه يواجه بلغة فرنسية مخلوطة بعامية أو أمازيغية، ثم ينتقل إلى المدرسة ليجد لغة جديدة وهي العربية الفصحى، وقد يوظّف المعلم لعامية في تلقين دروسه، وتراه يواجه الازدواجية Diglossie أو الثلاثية، مما قد يشكّل له عقدة في نموّه اللغوي والمعرفي والفكري، وربما يخلق له اضطرابات نفسية، ومن هنا يرى بعض المربين بأنّه يجب تلافي إدخال نماذج لغوية متباينة في هذه السنّ، أي تلافي تدريس لغات أخرى ليست من ذات المكتوب في المرحلة الأولى؛ فالتلميذ عندما يتعلّم مثلاً ثلاثة أشكال من صوت واحد مثل: ل / L / ll يواجه صعوبة في التمييز بينها، خاصة عندما يتعلّم مختلف التغيّرات عليها وهي في أول الكلام وفي وسطه وفي آخره وأنواع الخطوط التي تلحق كلّ حرف، فيحدث له خلط بينها. وهناك من يرى غير هذا؛ فأندرسون Anderson مثلاً يرى أنّ تعلّم لغة هي تعلّم مهارة، فالإنسان له قدرة على تعلّم مهارات مثل قيادة السيارة أو الترحلق أو لعب الدومينو أو مهارة الكتابة على الكبتار. والمهارات لا تتداخل فيما بينها لأنّ لكلّ واحدة منها برمجياتها. فالمتعلّم للغة جديدة مثله مثل الذي يقود السيارة، فأول مرة يرتعش

وبخاف، ثم تصبح عمليات القيادة آلية، وكذلك اللغة تصبح بعد مدة آلية وطبيّة في لسان المتعلم.

ويمكن اعتماد هذه الخطاطة لمعرفة درجة استعمال هذه اللغات في مقامات متنوّعة وحيّة، لنرى مايلي:

اللهجات المحلية						اللغة			
الشلحية	التوارقية	الشنوية	الميزابية	الشاوية	القبائلية	الفرنسية	الدارجات	العربية	مجال الاستعمال
*	*	*	*	*	*	*	*		العائلة
	*	*	*	*	*	*	*		الأصدقاء
				*	*		*	*	الدين
			*		*	*		*	التعليم
		*	*	*	*	*	*	*	الوسائط
						*	*		العمل
						*		*	الحكومة

تبين لنا هذه الخطاطة السوسiolسانية الافتراضية الوجه الاجتماعي للغات بالجزائر في درجة استعمالها، دون اعتماد مدوّنة ما، فنلاحظ استعمال الفرنسية يمسّ أكثر المقامات، وتأتي الدارجات في الرتبة الثانية، والعربية الفصحى في

الرتبة الثالثة. وأما المحليات فلكلّ واحدة منها أوضاعها؛ فنجد القبائلية لها وضع متميّز عن الأخرى، رغم أنّ مجالها محدود، وبعض المحليات تقريباً لا يذكر استعمالها مثل الشلحية التي توظّف في بعض الأماكن القريبة من وجدة، ولها شساعة كبيرة في المملكة المغربية. ومن خلال هذا نجد وضعيتنا توسم بازدواجية لغوية، حيث الأمازيغية تستعمل في مقام لا تستعمل فيه العربية الفصحى، وكذا الفرنسية.

كما يمكن أن نلحق هذا بتشخيصات أخرى أظهرتها الدراسات الأكاديمية، فتبيّن بأنّ الدارجات رغم كثرة استعمالها إلا أنّ ليس لها توجيه تأثيري في الوضع اللغوي، كما هو الحال في اللغة الفرنسية، وهي اللغة الأجنبية ولكن بحكم عوامل سوسيوثقافية والتعميم الفائق لها على حساب اللغة الرسمية والألسن الوطنية. ولقد أضحت الفرنسية مستعملة ولها أثر في المجتمع، وتتّسع بشكل دائم وخاصة في السنوات الأخيرة، مما جعل العربية وهي لغة الهوية والانتماء والتواصل على مستوى الفرد والجماعة تدبج قرباناً أمامها وأمام الانفتاح والعولمة، وكذا حصل للأمازيغية أن دُبحت قرباناً على هيكل القومية العربية، وهي اللغة الأصل للجزائر قاطبة، وأصبحت لغة جهوية "ووجد الطفل الجزائري نفسه نتيجة لهذه السياسة اللسانية اليعقوبية مقذوفاً في متاحات البحث عن هوية أخرى"¹ وهذا غياب تعددية لسانية تراكمية متوازنة ومتنوعة ومعززة في المدرسة، وتنوّع لغوي هوي عربي/ أمازيغي يحظى بالدعم على مستوى رسمي.

إنّ الطفل الجزائري في أيّة منطقة كان، فهو إما أحادي اللغة وثنائي التأدية: عربية دارجة (عربية فصحى) + فرنسية. أو ثنائي اللغة: أمازيغية + عربية دارجة (عربية فصحى) أو ثلاثي اللغة: أمازيغية + عربية دارجة (عربية

¹ - عبد السلام خلفي، اللغة الأم وسلطة المؤسسة مبحث في الوطنية اللغوية والثقافية في المغرب. المغرب: 200، ص 17.

فصحى) + فرنسية. ويعدّ الأمازيغ حقيقة متعدّدي اللغات بما فيهم الأميون، لأنّ التعدّد يعود للكلام دون المؤهلات اللغوية والخصائص الفكرية، والازدواجية ثابتة مع الطفل قبل سنّ التمدّس، وبحكم هذه السوق اللغوية التي يمكن أن نسميها بالسوق اللغوية الليبيرالية، فأيّ اللغات أم؟

هل العربية الفصحى لغة أم؟ في الحقيقة إنّ اللّغة العربية الفصحى ليست لغة أم، فلا تسمع في الحياة اليومية ولا في البيوت، بل تتعلّم في المدرسة، وكون لهجاتها مستوى أدنى يمكن عدّها لغة أم باعتبار التقارب الدلالي والصوتي والجذري، وكذلك بحكم دستوريتها ومؤسّساتها أضحت اللّغة الأم بالقوّة بعد الدارجات، فهل لغة أم رقم 2، رغم أنّها تعدّ اللّغة الثانية في المناطق الناطقة بالأمازيغية، ولكن نظراً لخصوصيتها التي لا تنطبق إلّا عليها من حيث. تمكّنها في الشعب الجزائري، وعمرها المديد، فهي لغة تنطبق عليها الشروط التي نصّت عليها الأبحاث اللسانية، فتعدّ لغة أم في المناطق الناطقة بالعربية الدارجة؛ لأنّ الطفل عندما يدخل إلى المدرسة والجامعة وفي بعض التخصصات، ويحصل البون الشاسع بينها وبين لهجاتها وهو العائق الأساس في تعلّمها. وقد أكذب على نفسي إن قلت إنّ العربية الفصحى الآن لا تعيش إشكالية مخيفة، وإنّنا نجهلها ونجد صعوبات كثيرة أثناء الحديث بها؛ لأنّ الوضع الازدواجي وانتشار الأمية له أثره السلبي على هذه اللّغة، ويصعب تجاوز هذه الإشكالية في ظلّ غياب الاستعمال الطبيعي لها "لقد أثبتت التجارب والبحوث والدراسات اللغوية أنّ تجاوز مشكل الازدواجية يمكن أن يتمّ عبر الإغماس المبكر، حيث أبانت التجارب التي جرت في كيبك فعالية ذلك؛ ففي سنة 1960 لم يكن الأنجلوفونيون هناك راضين على نتائج تعلّم أبنائهم الفرنسية اللّغة الثانية بالطرق التقليدية، فلجأوا إلى برنامج الإغماس الذي يهدف إلى استغلال قدرات الأطفال

على تعلّم اللغات وانفتاحهم وإقبالهم غير المتعمّد الذي يماثل جوّ اكتساب اللّغة الأولى دون أن يعيق نموّهم في مجالات عدة، فيتعلّم الأطفال اللّغة الفرنسية ويلجؤون إلى التّخاطب بها في المدرسة، ثم يوظّفون اللّغة الإنجليزيّة في البيت¹. ولكن أين يوجد هذا الإغماس المنشود في واقع الحال والعربية في كلّ أوضاعها ما عرفت توظيف الفصحى في المقامات العالية، وكيف يمكن أن يحصل مع ازدهار اللهجات واللغات الاجنبية في بلدنا.

هل الدارجة لغة أم؟ إنّ الجانب الازدواجي طبيعي في كلّ اللغات، ففي كثير منها تقريباً هناك لغة كتابة ولغة حديث، وهناك لهجة، وهذا ما ينطبق على اللّغة العربية التي تتفرّع عنها الدارجات، ولكنّها في تكامل وظيفي مصيري، فهل هذه الأخيرات لغات أم؟ قياساً بالمنطوق فهي لهجات، وتشكّل مساحات عريضة من الناطقين بها وتتبسط على رقعة جغرافية كبيرة، وهي لغة أم رقم 1، لهذين الاعتبارين: أولهما إنّ للعاميات العربية مستوى أدنى من مستوى اللّغة الفصحى وتتعدّد أدائها فقط، وهنّ شفاهيات، يستعمل كلّ منها في مناطقها الخاصة، وفي مواقف الأنس. وثانيهما أنّ كل العاميات لا تخضع للمكتوب، وهي لغة طبيعية. إنّ الظاهرة التي تتحكّم فيها اللّغة العربية منذ غابر الزمان هي La Diglossie التي تحدّث عنها William Marçais عام 1930م وهي: التنافس بين لغة أدبية مكتوبة ولغة عامية شائعة للحديث². أما فيرجسون فحدّدها: "حالة لغوية ثابتة نسبياً يوجد فيها فضلاً عن اللهجات الأساسية التي ربّما تضمّ نمطاً أو أنماطاً مختلفة باختلاف الأقاليم؛ نمط آخر في اللّغة مختلف عالي التصنيف وفي غالب الأحيان أكثر تعقيداً من الناحية النّحوية، فوقى المكانة. وهو آلة لكمية كبيرة ومحترمة من الأدب المكتوب لعصور خلت، أو لجماعة سالفة،

¹ - التعبير الشفوي وتعلّم العربية، سلسلة التكوين التربوي. المغرب: 2000، مطبعة النجاح الجديدة، العدد 11.

² - Marçais, La Diglossie arabe, l'enseignement publique. Vol97, William no 40, 1930

ويتعلّم الناس هذا النمط بطرق التعليم الرسمية، ويستعمل لمعظم الأغراض الكتابية والمحادثات الرسمية، لكنّه لا يستعمل من قبل أيّ قطاع من قطاعات الجماعة المحلية أو المحادثة العادية¹. إذن هذا شيء طبيعي وأكثر اللغات تتحكّم إلى هذا النمط، ولا خوف عليه لأن لكلّ مستوى مقام وبحسب حال المخاطب؛ فالعامية تستعمل في مواقع الأتس، والفصحى في المواقف الرسمية.

هل الأمازيغية لغة أم؟ تعدّ الأمازيغية في المناطق الناطقة بها لغة أم؛ رغم محدودية مستعمليها، حيث لا يوظّف غيرها، خاصة في الريف وداخل البيوت وعند كبار السنّ. وبفعل عملية التعريب فإنّ المازيغية تقلّص فعلها كلغة استعمال في المحيط حتى في المناطق الأمازيغية، ومع ذلك تتوافق مع مصطلح لغة الأم من حيث تطابق الشروط الأساسية لتصنيف اللّغة كلغة أم، أضف إلى ذلك فهي لغة وطنية بحكم أصالتها واستعمالها في عديد من المناطق وبحكم الدستور الذي أقرّ بها كلغة وطنية. ولكن مصطلح اللّغة الوطني يقتضي عليها أن تكون مكتوبة، ولغة الاستعمال الشفاهي اليومي. وهذا جانب تشتكيه الأمازيغية في الوقت الحاضر، ويعتبر حاجزاً يحول دون معياريتها.

هل الفرنسية لغة أم؟ إنّ اللّغة الفرنسية ليست لغة أم بحكم أجنبيّتها ونخبويّتها، فهي غنيمة حرب كما يُقال، نالت حظوة متميّزة عن اللغات الوطنية، بحكم تذبذب تخطيط السياسة اللغوية/ التربوية والتي لم يقع الفصل فيها في سنوات الاستقلال، حيث وقع تهميش اللغات المحلية في الإدارة والتعليم، وبقيت الساحة للفرنسية، وكسبت مساحات في شمال الوطن خاصة، إلى جانب النخبة التي لا تتسامح فيها، واحتلت نافذة متنفذة في القطاعات الاقتصادية وفي التعليم العالي بكلّيات الهندسة والطبّ والعلوم. ولكن تجربة تعليمها في الجزائر لم تؤدّ

¹ - Ferguson Charles A, diglossia. Vol 15, 1959, P325

إلى نتائج تجعل مستواها راقياً. وما ينطبق على اللغة العربية الفصحى يقرب في كثير من أبعادها إلى اللغة الفرنسية، والفرق أنّ الفرنسية لها توظيف محلي جيد. وأما في قطاع التربية فهي تشكو ضعفاً، ولم تنل إلا مساحة ضيقة من شساعة هذا الوطن.

أهداف تعليم لغة الأم: تؤكد الأبحاث العلمية بأنّ الطفل أكثر استيعاباً بلغته من لغة أخرى، وأنّ الفهم كلّ الفهم يستحسن أن يتم بلغته، لا بلغة أجنبية. إنّ العربية في الجزائر أضحت لغة الأغلبية بحكم الاستعمال والتوظيف وبحكم الفضاءات المؤسّساتية التي جعلت منها اللغة الرسمية ولا مجال للاعتراض عليه، كما أنّ امتلاك لغة أساسية يعني امتلاك رأس المال الذي من ورائه المنطلق، ولكن يمكن أن يتم كذلك بلغات أخرى إذا تمّ تعلّمها بصورة متقنة، ومع ذلك فإنّ تعلّم اللغة الأم كافٍ لبلوغ أهداف النفاذ إلى المعلومات بلغة أخرى، باعتبار اللغات يحكمها منطق واحد، وهناك رأي عند اللسانيين التطبيقيين يقول بأنّ تعلّم لغة ثانية لا يختلف جذرياً عن تعلّم لغة أولى، لأنّه يكون قد استتصر نسقاً أولياً، وبه يمكن تعلّم اللغة الثانية، ولكي يفلح بصورة جيّدة لابدّ من التأكيد على الإغماس في البيت أو الروض أو المدرسة، فالوسط أساسه الشركاء في الاتّصال، ولذا يؤكّد علماء النفس ضرورة تعليم اللغة الأم أولاً وإدراك بنياتها النسقية التي يحسن استثمارها للتحكّم في المنطق اللغوي، ثم تعلّم اللغات الأجنبية. وهكذا تعمل كلّ الأمم على تعلّم اللغة الأم سواء كانت رسمية أم غير رسمية لأنّها تحمل سجلاً محفوظاً في الذاكرة، وهذا السجل يحتوي الألفاظ المتقوّ عليها في المحيط والعبارات المتداولة والتراكيب المقنّنة التي يتحكّم فيها كلّ فرد من أفراد الجماعة الناطقة بذات اللغة "هذا السجل المحفوظ تراث مكتسب بعد الولادة مأخوذ بواسطة الشخص الحاضن للطفل والملازم له طيلة الأعوام الثلاثة

الأولى من عمره، سواء كان الحاضن أمّاً أو شخصاً آخر من نفس الجماعة التي ولد فيها الطفل أو من أيّة جماعة بشرية أخرى¹. وهكذا ما كان يجب أن يضيع هذا المخزون، بل تعمل المدرسة على شحذه بآليات التعليم التي بواسطتها يكتسب المتعلّم ملفوظات جديدة، كما يعمل على تحديد العلاقة بين تطور الفكر والتطوّر اللغوي. فالمدرسة تعطي أكبر الحظوظ الذهنية والمادية والاتّصالية لإنجاح اكتساب اللّغة الأم، باعتماد العوامل التي تساعد على نشرها، وهي:

- العوامل الدينية.
- العوامل الحضارية.
- العوامل الإلزامية.
- كثرة المتحدثين بها².

إنّ تعلّم اللّغة الأم لازمة وضرورة اجتماعية، وهي عنصر من عناصره، وأداة فعالة من أدوات تطوّره ورقيه فتحصل عن طريقها دينامية التحصيل اللغوي، والتي حدّدها الأستاذ عباس الصوري فيما يلي:

- مبدأ التوسّع:
- مبدأ التقليل.
- مبدأ التداخل.
- مبدأ التهجين³.

ومن هنا فإنّه لا يغرنّ اللّغة الوطنية لا تتطوّر، ولا يجني المتعلّم منها فائدة، علماً أنّ الاكتساب اللغوي يرتبط بالتطوّر الذهني للطفل، والذهن يتطوّر

¹ أحمد الوالي العلمي، في التربية اللغوية وأنماط التواصل، ط1. المغرب: 2001، مطبعة فضالة بالمحمدية، ص6

² إبراهيم عبد العزيز أبو حيمد "السن المناسب لتعليم اللغات الأجنبية" مجلة الدراسات اللغوية. السعودية: 2000، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، المجلد الثاني، العدد الثالث، ص209.

³ إبراهيم عبد العزيز أبو حيمد "السن المناسب لتعليم اللغات الأجنبية" مجلة الدراسات اللغوية. السعودية: 2000، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، المجلد الثاني، العدد الثالث، ص209.

باللغة الأم أكثر من غيرها من اللغات، وهي التي تزوّده بالمفاتيح الأولى التي تمكنه من الاستجابة لكلّ المتغيرات ولكلّ جديد. وهكذا يقع على اللغة الأم أساس تحصيل العلم إلى جانب تحصين الهوية والانتماء.

تتمّ عملية تعلّم اللغة من الوسط وبطريقة آلية؛ حيث يأخذ الطفل الألفاظ والبنى اللغوية البسيطة بعفوية قبل أن يضبط المفاهيم أو التصوّرات الدقيقة، مما جعل البعض يعيد النظر في مصطلح لغة الأم بمعنى اللغة التي يسمعها عن أمه. ويطلق عليها معجم علوم التربية ومصطلحات الديداكتيك اسم: لغة المنشأ - لغة الأمومة *maternelle Langue* ويحددها كما يلي "النظام اللغوي الذي يكتسبه الطفل في مجموعته اللغوية ويستبطن قواعد ويوظفه لإنتاج جمل بفضل قدراته اللغوية. فالطفل من خلال تفاعله مع جماعته اللغوية، يبني نظاماً مجرداً (نحو) يمكنه من معالجة الملفوظات وإنتاجها... ويفيد هذا المعطى على مستوى ديداكتيكي، إنّ تعليم اللغة الأم يستند إلى قدرات المتعلّم المكتسبة لكي يجعله يكتشف معطيات جديدة مما يعني أنّ بناء ديداكتيك اللغة الأم قائم على معطيات لسانية وسيكولوجية... ومرتكز على المقومات التالية:

- ربط استعمال الأشكال اللغوية بالنوايا التواصلية بدل الاقتصاد على جمل مجزأة تردّد آلياً.¹

2- ملاحظة الكيفية التي يتواصل بها الطفل مع محيطه².

وهكذا فإنّ الطفل عصامي في اكتسابه الأول للغة؛ لأنّ له من الطاقة ودقّة الملاحظة وحبّ المحاكاة ما يغنيه عن التلقين بواسطة أمّه أو معلم مباشر، فيتفق علماء النفس على أنّ الطفل ما إن يدخل عامه الثالث إلّا ويكون قد اطّلع

¹-عباس الصوري، في بيداغوجية اللغة العربية. المغرب: 1998، مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء، ص 18-19.

²- عبد العزيز الفارابي وآخرون، معجم علوم التربية مصطلحات البيداغوجيا والديداكتيك. الرباط: دار الخطاب للنشر، سلسلة علوم التربية، العدد: 9-10.

على خصائص اللّغة الأولى وبنياتها الأساسية ومخارج حروفها دون تلقين خارجي، وبذلك المخزون يتواصل لقضاء حاجاته الآنية البسيطة، ثمّ ينحو ذلك الرصيد من بيئته الكبرى، وهو ما يوظّف في البيت والشارع والمدرسة. وأمام ما نعيشه في الجزائر، فلدينا لغتان أم، فهل هاتان اللغتان تدرّسان بشكل جيّد في المدرسة والجامعة؟

إنّ اللّغة الأم رقم 2 قد وقع الاهتمام بها، وأقيمت لها مؤسسات تعمل على ترقّيتها، ومع كلّ ما قدم لها فهي تعيش ضعفاً فادحاً على مستوى الأداء السليم، وهذا ضمن معطيات حضارية مؤقتة، أضف إلى ذلك التورّع القومي العربي الذي يعمل بتؤدّة من أجل تطوير هذه اللّغة، وضمن معطى شرقي قادم من مصر وهو التسامح اللغوي الذي لعبت فيه اللهجة المصرية عبر فضائياتها، وساهمت فيه الفضائيات اللبنانية، وعملتا على مسخ لغوي يزيد الفجوة بينها وبين الدارجات، ويعطي للغات الأجنبية حقّ دخول ألفاظها إلى المتن اللغوي العربي، ويزاد إلى ذلك غزو اللغات الأجنبية أسواق الاستعمال العربي بمختلف منتجاتها ومغرياتها الإشهارية، دون الحديث عن العولمة اللغوية التي تطرح كلّ اللغات التي لا تصلح لمتطلّبات العالم المتقدّم أو تجارياً وسياسياً، والعربية منها.

وأما **الأمازيغية** فنعلم أنّها دخلت حديثاً إلى منظومة التعليم، بحجم ساعي محدود، وفي أقسام الامتحانات، وفي بعض ولايات الوطن. وإنّ وضعها لأكثر من متدهور، وتعيش ردود فعل من بعض الرافضين تدريسها، علماً أنّ الاعتراف بها شيء لا غبار عليها. وإنّ هؤلاء الرافضين يرون بأنّها من فصيلة الحامية السامية وهي أخت العربية، وإنّ العاملين على ترقّيتها يريدون نزع كلّ ما له علاقة بهذا الاتّصال الطبيعي الطبيعي والتاريخي الذي يوصلها إلى أختها العربية، وتتحكّم فيها المدرسة الفرانكفولية التي توجّهها وجهة مضادة، لدرجة أنّ

بعض العاملين على ترقيتها يصرّحون: لو لم يحصل التعريب لما حصلت المنادات إلى ترسيم الأمازيغية. أضف إلى ذلك الصفة الرمزية الأولى التي كتبت بها وهو خط التيفيناغ الذي حُرمت منه، واستقطبها الحرف اللاتيني بتوجيه مقصود في الوقت الذي كتبت في العصور السابقة بالحرف العربي منذ آلاف السنين، وهذه هي الخصيصة الدال على استحواذ الطرف المعادي للعربية.

إنّ اختيار السجل اللغوي لا يكون محايداً، وكذلك رسم اللّغة لا يكون محايداً، وكذلك رسم اللّغة لا يكون محايداً، إنّ الرسم ليس رزمة تُلَفّ به أية لغة، بل هو الهوية والرمز¹، فهل يمكننا كتابة الفرنسية بالحرف العربي أو الصيني، وهل يسكت أو يرضى الفرنسيون عن هذا الفعل. إنّ الخطّ يحمل تراث أمة وفكرها ومجدها، فاللّغة لا تتميز إلّا به وعن طريقه تكون. ومن هنا فإنّ الرافضين يصرّون في مجال وطننة الأمازيغية أن تخضع لمعيارين أساسيين، وهما:

المعيار الأول: أن تعتمد خطّها الأصل (التيفيناغ) وهو أفضل حلّ لغوي يلجم كلّ الأفواه، وعن طريقه تعرف وتعود إلى خصوصيتها، رغم محدوديته ونقائصه وقلة استعماله في منظومة الإعلام الآلي، وتخلّفه، وكلّ الخطوط مرّت بمراحل التطوير، وليس ذلك صعباً أمام ما تشهده الآليات المعاصرة من تطوّر. وأراه الباب الذي يسدّ كلّ الأصوات والتيارات التي تتنازع الأمازيغية في الوقت الحاضر؛ باعتباره يعبر عن الهوية الفكرية الواضحة لهذا الشكل من التواصل المقهور.

المعيار الثاني: وإن لم يكن الأول فإن تعتمد الحرف العربي، باعتبار القواسم المشتركة بين اللسانين والتداخلات التي حدثت بينهما، كما أنّ أول رسم

¹ - ينظر كتابي: في المسألة الأمازيغية. الجزائر: 1999، در هومة.

عرفته الأمازيغية بعد التيفيناغ هو الرسم العربي، وكتبت به في المغرب العربي إلى غاية السبعينيات، باستثناء كتابات المعمرين وضباط المخابرات الذين يدونونها باللاتينية، كما تتجلى قواسم صوتية ودلالية كثيرة في زخم الاحتكاكات اللغوية على مستوى الاستبدالات التي جرت في الساحة اللسانية الجغرافية إلى أن وصلت حدّ اضمحلال أو ذوبان الأمازيغية في العربية، أضف إلى ذلك ما تنصّ عليه الأبحاث من أنّ تأثير اللغة الأولى : العربية أو الأمازيغية لا يشكل عقدة لأتّهما من فصيلة واحدة، فعند "تعلم ل2 يأتي المتعلّم ومعه ل1، ومعه عادات لغوية معيّنة في الجوانب الصوتية والصرفية والمفرداتية والنحوية والدلالية والثقافية فتؤثّر ل1 في تعليم ل2 تأثيراً يختلف من حالة إلى أخرى فحيثما تتشابه ل1 ول2 يكون الانتقال إيجابياً Positiv transfer وفي هذه الحالة يسهل تعلّم ل1 وتعلّم ل2 والنتيجة تسهيل وأداء صحيح. وحيثما تختلف ل1 ول2 يكون الانتقال سلبياً Negative transfer وتكون النتيجة أنّ ل1 هنا أعاقت تعلّم ل2 أي تكون النتيجة إعاقة Inhibition وخطأ في الأداء من نوع ما. وكلّما زاد التشابه بين ل1 ول2 زاد الانتقال الايجابي وقلّ الانتقال السلبي، أي زادت الأداءات المصيبة وقلّت الأداءات الخاطئة وأسرع اكتساب ل2¹. وكما نعلم أنّ تداخلات العربية بالأمازيغية كثيرة، وهنا يسهل إتقان نظام لغة ثانية بعد إتقان نظام الأولى. ويقول William Marçais كلّما كان النظام الكتابي للغة ما سهلاً وقريباً من اللغة الأولى فإنّه يعيّن على التعلّم إدراكه، وهناك من يرى بأنّه كلّما كان الخطّ مختلفاً يزيد عبئاً على الذهن، ويؤدّي إلى التشبّث الذهني وترعرع الانتماء الوطني². أي كلّما كان التشابه بين خطّ لغة المتعلم وخطّ لغة الهدف

¹- محمد علي الخولي، الحياة مع لغتين، ط1. السعودية: 1988، جامعة الملك سعود، ص81.

²- Stern H Foreign language in primary education, the teaching of Oxford or second language to young children. London : 1967, University Press.

سهل إتقان اللّغة الأم الثانية، فالصعوبة التي يواجهها العربي في تعلّم الصينية ليست ذاتها التي يواجهها الياباني بحكم القرب في الرسمين: الصيني والياباني. **السياسة اللغوية المقترحة:** حديثي في هذه النقطة يلخّص النظرة التي بصّرت بها من خلال الدراسات التي أجريتها مع طلابي، وكذلك ما كنت أدافع عنه ذات وقت في المجلس الأعلى للتربية، فقدّمت تصوّراً للسياسة اللغوية في الجزائر، في إطار السياسة التربوية التي يمكن رسمها على المدى البعيد، ويمكن التذكير بركائزها:

أولاً: فتح حوار وطني شامل حول السياسة اللغوية/التربوية:

ثانياً: ضبط موقع اللّغة الرسمية في الخطاب الرسمي:

ثالثاً: كيفية الاهتمام باللغات المحلية:

رابعاً: تدريس اللغات الأجنبية:

تعطي السياسة اللغوية كلّ الأهمية للتخطيط اللغوي الذي يعمل على تطوير اللغات الوطنية في الكيانات الحديثة النشوء، ولذلك تولي المجتمعات الحديثة تنمية اللّغة القومية وتقنينها، كما عمل علم الاجتماع اللغوي على تحديد هذا الجانب لأنّ "موضوعه التنوّع اللغوي في المجتمع الواحد، وغايته تخطيط السياسة اللغوية بطريقة موضوعية ووسائل علمية"¹ وإنّ تخطيط السياسة اللغوية يحتاج إلى:

- جرد الحاجيات بمسح الأولويات.
- تحديد الأهداف القريبة والمتوسطة ثمّ البعيدة.
- تجنيد الوسائل لتحقيق الأهداف.

¹ - علي القاسمي، الجامعة والتنمية. الرباط: 2002، سلسلة المعرفة للجميع، العدد 27، ص 157.

وإنّ السياسة اللغوية هي مجموعة من الخيارات الواعية القائمة بين اللّغة والجانب الاجتماعي، ويردّفها التخطيط الذي يضع الخيارات قيد التنفيذ¹، وتقوم على المقوّمات التالية:

- تعميم استعمال اللّغة القومية.
 - نشر اللّغة القومية في العالم لتكون رافداً يسهم في الثقافة العالمية.
 - تعليم اللغات الأجنبية في مدارس الأمة.
 - تنظيم الترجمة من اللّغة القومية وإليها.
 - توحيد المصطلحات التقنية².
- يعدّ التخطيط التربوي جزءاً من السياسة اللغوية، فهو يعمل على حلّ المشكلات التربوية في إطار شمولية التخطيط العام ، وضمن المطابقة بين الأهداف والمواد المتاحة، وتحرّي مضامين الفعاليات بغية تحديد الأهداف الكبرى لمنظومة التربية "هو عملية التوجيه العقلاني للتعليم في حركته نحو المستقبل، عن طريق إعداد مجموعة من القرارات القائمة على البحث والدراسة، تمكيناً لهذا التعليم من تحقيق الأهداف المرجوة منه بأنجح الوسائل وأكثرها فاعلية وكفاية في استثمار الوقت والجهد والمال³". يحصل فعل التخطيط بين السياسي الذي يطرح التوجّهات الكبرى، ضمن مرجعية وطنية وعالمية، وبين أهل الاختصاص الذين يضعون تصوراً شاملاً في مشروعهم يلبي الطموحات الكبرى للأمة، وعند ذلك يمكن للسياسي أن يخضع المشروع للتطبيق، حيث يؤشر على المشروع أو يعتبره مجرد استشارة.

¹ Jean-Louis Calvet, La guerre des langues et des politiques linguistiques Paris : 1987 Payot p154-155

² علي القاسمي، الجامعة والتنمية. الرباط: 2002ن سلسلة للمعرفة للجميع، العدد 27، ص 160.

³ هيئة الموسوعة السورية، الموسوعة العربية، ط1. سورية: 2002، مؤسسة الصالحاني للطباعة، المجلد 6، ص182.

كما تعدّ الدراسات اللغوية التقابلية وما توصّل إليه علم اللّغة التطبيقي من أهمّ أدوات البحث في تقنين السياسة اللغوية والتي وضع برامج تعليم اللّغة القومية أو الأجنبية. وإلى جانب هذا، فترسم السياسة اللغوية من الواقع والمرجعيات الحضارية والتاريخية واللسانية؛ حيث تنصبّ مداولات المختصين على دراسة هذه المعطيات في إطار من الحرية وتغليب النزاهة والمصلحة العامة. وأمام ما نعيشه من وضع لغوي متميّز فنرى أنّ **ثلاثية لغوية فرضت نفسها**، ويجب أن نضمن لها أرضية التواجد ضمن المعطيات السياسية والتاريخية والعلمية التي نتحكّم إليها، وهذه الثلاثية اللغوية هي نتيجة الازدواجية الملاحظة على مستوى الأداءات وعلى مستوى التدريس الرسمي. وبغية تجسيد هذه الثالوث رأيت تحديد الخطوط الكبرى التي تصون وترقي هذا الثالوث ضمن المعطيات الحضارية والتاريخية والمعاصرة.

أولاً: فتح حوار وطني شامل حول السياسة اللغوية: أروم في هذا المقام فتح حوار وطني صريح وشامل يساهم فيه الكلّ؛ باعتبار الحوار عنوان الحضارة، يكون منطلقه شعار فولتير: قد اختلف معك في الرأي لكني سأدافع عن تبليغ رأيك. أو قول الشافعي: أنا مصيب وقد أكون مخطئاً، وأنت مخطئ وقد تكون مصيباً. حوار يكون مؤسساً على أرضية صلبة، يقبل الرأي المخالف، ويستمع إليه، ويعتمد المحاجة في إطار من الحرية. حوار يتناول كلّ القضايا اللغوية التي وضعت للمراجعة في هذا الوقت، فهي تهّم المجتمع الجزائري في كلّيته، ولا يمكن النظر إليها من منظورها النخبوي، فلا بدّ من معالجة جريئة ومتبصرة ومفتوحة في ذات الوقت، على أن يمسّ تأكيد الثوابت، والحديث عن المستجدات، وعن مقام اللغات المحلية التي لم ينفها الدين ولم يحاربها الأجداد، بل هي الأصل، ولا يجوز تغييبها "إنّ تغييب وتجاهل اللّغة الأولى للمتعلم يؤدّيان

إلى جعل المؤسسة التعليمية مؤسسة تنتج الميز وعدم لتكافؤ الفرص، وهي في نهاية المطاف تشتغل كمؤسسة اجتماعية وظيفتها إعادة إنتاج نفس القيم والعلاقات المجتمعية وتكريس الفوارق الاجتماعية بدل أن تكون أداة للتربية والتكوين، وحافزاً للدينامية والتغيير¹ وكذلك الحديث عن اللغات الأجنبية وأهميتها وقيمتها وتصنيفها. وقد يقول قائل: لماذا الحوار الوطني؟ إنَّ الحوار الوطني المنشود يستهدف تمثين العقد الوطني الذي وضعه الأجداد بعدم المساس بالمبادئ الكبرى؛ حيث التلاحق العربي الأمازيغي ترك عقداً أخلاقياً لا بدّ من احترامه؛ فأجدادنا وأجداد أجدادنا عاشوا في هذا البلد في وفاق فمرت جحافل من الجنود والأقوام، فتصدّى لها الأجداد وبقوا في خبر كان، وبقي الفاتحون العرب كأهل الدار. حوار يذيب جميع الحواجز التي تحول دون التحوار الفعلي بين تنظيمات المجتمع المدني، وأصحاب القرار السياسي، ويكون هدفه خدمة الجزائري لا تغليب رأي فرد على فرد. حوار يتماشى وتوجهاتنا الكبرى، لا مزايدة في مجال الصفاء العرقي، ولا يعني أنّ الناطق بغير الحرف العربي ليس عربياً، أو الناطق بالعربية ليس أمازيغياً. حوار يكون طابعه نزاهة وبناءً في إطار من الابتعاد عن السلفية الفكرية والتهيج السالب، حيث يكون الاعتراف بالتعدّد الثقافي والتنوّع والاختلاف الذي يشكّل المتن الأساس للوحدة الوطنية، والبحث عن نموذج أمثل يحقّق انصهار الخصوصيات التاريخية والثقافية واللغوية في إطار هوية جزائرية متنوّعة. حوار طابعه علمي وعقلي أي إعادة النظر في صيغ الطرح وأساليبه، وفي ذات الوقت يكون إيديولوجياً وعلمياً؛ فالرجوع إلى الأصل منظور إيديولوجي، وأما المنظور العلمي فنعمل بالنعمية، أي أن نتواجد

1- أحمد بوكوس "الأمازيغية والمنظومة التربوية" مجلة نوافذ. المغرب: 2002، عدد خاص بالمسألة الأمازيغية 17-18، مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء، ص 77.

فعلياً ووجدانياً ضمن خصائصنا بعيدين عن كلّ الخصوصيات الأجنبية، فنتنازل عن كلّ ما يخلق اللبس ويثير الشبهات.

ثانياً: واجبات الدولة: إن الدولة مسؤولة عن التخطيط اللغوي/التربوي، ومسؤولة بمختلف مؤسساتها عن حلّ المشاكل اللغوية، وعن الدعم المادي، فلا رقي لغوي دون الإنفاق، فكّل تخطيط لغوي تقابله الكتلة المادية التي تعمل على سدّ كلّ النقائص، ولهذا كان من الضروري السعي في المقام الأول للحصول على وضع المساواة في هذا الجانب، مع مراعاة بعض الخصوصيات من حيث لغة رسمية لها مكانتها العالية، ولغة وطنية يجب الاهتمام بها، وهو حقّ من الحقوق اللغوية، وعدم الاحتكار اللغوي الذي يعني الهيمنة سواء من اللّغة الرسمية أو من اللّغة الأجنبية.

ثالثاً: ضبط موقع اللّغة الرسمية في الخطاب الرسمي: لا أستهدف التراجع عمّا أقر، بل إنّ مسألة اللّغة العربية مفروغ منها، ولا تخضع للمناقشة، فالعربية لم تفرض، فكيف تفرض كمشة من الفاتحين لغة على شعب صنديد قهر كلّ الغزاة. إنّ الأمازيغ لما أخذوا هذه اللّغة طوعية حباً فيما تحمله من دين، وما يحمله هذا الشعب من نبل الأخلاق، ألم يكن للعرب دور تاريخي في تحريرهم من الاستبداد البيزنطي، ولذلك أسرع الأمازيغ إلى اعتناق الدين الذي أنزل على العرب؛ لأنّه لا يحمل على الاستبعاد والإكراه. ولهذا تحتاج العربية من الرسميين أن يكون لها موقع متميّز نظراً لما تحمله من وظيفة تعبدية وما اكتسبته من شرعية الانتشار بين اللغات المحلية، واضطلعت بعد ذلك بلغة التواصل الأوسع، فيجب أن تحترم في كلّ أبعادها، فهي من الثابت الذي يجب أن يعمل الجميع على خدمته، فالشخصية تعود إليها في المقام الأول، كما أنّها عامل أساس في الشعور بالهوية. دون الرجوع إلى ما حسمت فيه كل مواثيق الحركات الوطنية

وبيان أول نوفمبر 1954، وما جاء في مواثيق الحكومة المؤقتة ودستور 1963 و 1989 و 1996 والمواثيق الوطنية: 1964، و 1976. ومن واجبات الدولة أن تعمل على مواصلة تدعيمها وترقيتها، كما أنّ منظومة العناية بالفصحى تكتمل باحترام التشريعات اللغوية التي تعمل على ترقيتها، فلا يكفي أن نقول: إنّ اللغة العربية لها دستور يحميها، في ظلّ غياب عاصمة تحميها، وفي ظلّ تواجد مؤسسات مشلولة، ووجود أعلى ومستوى أدنى، وغياب الحمام اللغوي. يقول William Marçais هذه هي العربية هل هي لغة أم لغتان؟ لنقل إنّنا أمام مستويين مختلفين لنفس اللغة، لدرجة أنّ معرفة إحداها لا تقتضي بالضرورة معرفة الأخرى، ويتشابهان، إذ معرفة إحداها تبشّر كثيراً معرفة الأخرى، وإذا كانت الأزمة التي تعيشها اللغة العربية ناتجة أولاً عن اللغة العربية فالعنصر الثاني المسؤول أيضاً عن أزمة اللغة العربية بالمغرب الكبير هي اللغة الفرنسية¹. فكما يرى هذا الباحث فإنّ نقائصها وضعف حيلة أهلها العاجزين قوم لا يخترعون ولا يبتكرون، وهذا ضمن معطيات التخلف والاستعمار، فما كان يجب على الرسميين أن يقبلوا القهر الثقافي الذي تمارسه عليها اللغة الأجنبية. ومن واجبات مسؤوليها أن يعيدوا النظر في سياسة التعريب الفاشلة والتي عفا عليها الزمان، فلا بدّ من طرح جديد يستجيب للتطوّرات الحديثة. وهكذا تحتاج إلى دعمها بكلّ الوسائل الممكنة من أجل تغيير في المناهج الدراسية، وإعادة النظر في نحوها، وإلى منظور جديد في اللهجات التي تعيق تحصيل الملكة بشكل طبيعي، دون أن نغوص في مهارات اللغة من خلال السيطرة على قواعدها وأنظمتها وفقاً لبرامج دقيقة يحدث نتيجة لها التأثير المطلوب في الحياة

¹-ع/إدريس الشغروشني "الآثار الناجمة عن ازدواجية في تكوين الملكة اللغوية العربية في المراحل الأولى من التعليم" مجلة استعمال اللغة العربية في المغرب. الرباط: 1993، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ص 108-109.

اليومية. كما يجب أن يعمل المختصون في إطار رفع معنويات متعلميها ومستعمليها لتجاوز المثبطات التي لا ترى فيها لغة العلوم ولا لغة البورصة والتجارة الدولية وعليهم أن يظهروا بأن إخضاع العلوم لمعايير علمية موضوعية ممكن في كل اللغات، وإنما يجب الاهتمام بالترجمة، وهي مفتاح العلوم. وإن اتّخذنا للقرار يجعل الناشرين الأجانب يطلبون من المؤلفين الكتابة بالعربية أو الترجمة إليها باعتبار الأمة العربية سوقاً رائجة للكتاب، وأذكر أن أساتذة من روسيا سابقاً يلقون دروسهم في الجامعة بفرنسية مكسّرة، وهم الذين قالوا لماذا لا تطلب الحكومة الجزائرية من بلدنا إرسال أساتذة يتقنون العربية. وقال أحدهم بإمكاننا أن ألقى دروسي بالعربية بعد إخضاع نفسي لرسكلة لا تتجاوز ستة أشهر. ومن هنا يجب علينا التخلّي عن أسر المجتمع باللغة الأجنبية (الفرنسية) التي أغلقت أبواب الإبداع، حتى تركنا لغتنا، صوب الأخرى وما أفلحنا فيها، وهذه دعوة لإقامة وتائر معيّنة للغات الأجنبية دون الانبهار بها. أن تكون وسيلة لا غاية، نستخدمها مع الأجنبي ونترجم منها ونطّلع على ثقافتهم، وبذلك نضمن الأمن اللغوي الذي يحفظ هويتنا، مثلما فعل الأسويون فاليابانيون لغتهم قوية في اليابان، وليس لها إشعاع حضاري خارج بلادها، وبها أبدعوا وأنتجوا حضارة راقية تضاهي وأحياناً تتجاوز الحضارة الأوروبية الحالية، وكذا بالنسبة للكورية التي تغزو منتجاتها أسواق أمريكا، وهذا بفضل لغتها التي تبدو للبعض بأنها لغة عتيقة ولا تسابير التقنيات الحديثة.

رابعاً: الاهتمام باللغات المحلية: لا شك أنّ الحوار الوطني في المسألة اللغوية سيؤدّي إلى تقديم تنازلات ولو ضيقة من أجل قضايا عامة، حيث يهدأ الخطاب الأمازيغي ولا يسيّس، ثم يزال هاجس تفتيت الوحدة الوطنية التي عقدت منذ 15 قرناً، فليس تفتيت الوحدة الوطنية غولاً نظهره في كلّ خطاب يعيد الهوية

الوطنية إلى وضعها الطبيعي. ومن هنا فتطرح مسألة اللهجات الأمازيغية ضمن آليات العصر، وفي إطار من الهوية الثقافية التي لا تخضع لصناديق الاقتراع، ودون الإخلال بالتماسك الاجتماعي، أو عرقلة مسار التنمية والإصلاحات. ومن وراء هذا فيجب أن نطرح كلّ ما له علاقة بهذه المسألة، وهي كما يلي:

- هل معرفة الأمازيغية زيادة أم نقصان؟ بلا شكّ زيادة في ثقافة كلّ جزائري، ومعرفة بعضنا البعض ومن هنا فإنّ فهمي لأخي بصفة مباشرة أفضل من وسيط. كما أنّ التداخلات اللغوية بين اللسانين العربي والأمازيغي أدّت إلى أنّ أسماء الحشائش والمدن وبعض الصناعات المحلية أمازيغية الطبع والاسم. ومعرفتنا بهذا إضافة إلى القاموس اللغوي الممتن للتداخل السلمي.

- هل تدريس الأمازيغية شيء مضرّ؟ سؤال مصري أستهدف من ورائه ضرورة الاطلاع على الخصوصيات اللغوية التي يتوفّر عليها المجتمع الجزائري، ما لم يمسّ بالثوابت. ولذا من الضروري تحديد موقع هذه اللّغة من اللّغة الرسمية واللّغة الأجنبية، ثم أية أمازيغية تدرّج في المنظومة التربوية، لأنّ الأمازيغية أمازيغيات. وهذه النقطة لا تحلّ إلّا باستصدار نصوص تشريعية تهدف إلى إعطاء استقلالية ذاتية في الشؤون اللغوية باعتماد مبدأ الترابية Le principe de territoriale في المناطق الناطقة بالأمازيغية؛ لأن حق اختيار السجل اللغوي تؤكّده كلّ التشريعات والأعراف، أي أنّ كلّ منطقة أمازيغية تدرّس لهجتها الخاصة. وهذا يتيح للفرد الاستفادة من خدمات مؤسساتية في لغته في حدود جغرافية معيّنة وهذا المر موجود في الدول التي اعتمدت مبدأ الازدواجية شرط المحافظة على السّلم اللغوي العام الذي يضع اللّغة الرسمية (لغة وجوبية) واللّغة المحلية (لغة اختيارية) خارج مناطقها، فلا يجبر المجتمع إلّا بلغة السلطة. قد ينظر البعض لهذه المسألة من زاوية العمل على جمع شتات الأمازيغية وصياغة

قواعد جديدة، فهذا شيء مستحيل، ولا يمكن أن تتوحد هذه اللغات، فاللغة الافتراضية حلم لا يتحقق، ومجرد التفكير في مشروع يوحد مختلف الوضعيات اللسانية خرافة، كما أنّ رواد الفيلولوجيا يرفضون فكرة بعث اللغة الأم المنقرضة، لأنّها شفاهية، ونسقتها الصوتي غائب، فليس للأمازيغية نصوص قديمة لأنّ أهلها كانوا يستعملون لغات أخرى، بما فيها دولة ماسينيسا ويوبا الثاني. بل يذهب أندري جوليان بعيداً ليقول في كتابه تاريخ شمال إفريقيا: إنّ البربر لا يكونون جنساً منسجماً من حيث الانتربولوجية.

- هل يمكن ترسيم اللغة الأمازيغية؟ سؤال كنت قد أجبت عنه في كتابي (في المسألة الأمازيغية) ولكن أمام غياب اللغة الموحدة أيّة أمازيغية ترسم؟ أضف إلى هذا هل يمكن ترسيم لغتين متقاربتين. وهل يمكن ترسيم لغة افتراضية، وتحت الضغط السياسي. وإنّ ترسيم اللغات لا يكون إلاّ بقوة القانون، ثمّ جعلها مقبولة ومتداولة اجتماعياً واقتصادياً، ومن هنا يجب الاحتراز من كلّ دعوة تحمل وراءها أبعاداً مشبوهة ففي بلدان المغرب العربي تعايشت الأمازيغيات مع العربية في عهود ما قبل الاستعمار الفرنسي، في سُلمية لغوية مختلفة، وما حدث صراع يُذكر إلاّ بعد الاستعمار الحديث الذي استأصلهما، وألجمهما بكلّ ما أوتي من قوانين وقوة.

- ما هو الرسم الذي يعتمد في كتابة الأمازيغية؟ قد نختلف في هذه المسألة، لأن طرح الفكرة تقاسمتها ثلاثة أقطاب، ولكلّ منهم حججه. لا أرى حلاً في كتابة هذه اللغة بالحرف العربي، أو الحرف الجاهز. وتستدعي الضرورة الوطنية وشخصية هذه اللغة الاهتمام بمعيّرة خطّ التيفيناغ الذي ارتبطت به، رغم أنّ هناك من ينفي كتابتها بهذا الرسم لضعف الدليل العلمي الذي تراه اللسانيات السلافية، فهو اصطناع وافتراض، ومع ذلك ترتبط به، وتفترض بعض الدراسات

بأنها أول حضارة اخترعها الأمازيغ. ومن هذا الموقع أريد الإشارة إلى مجموعة من المعطيات يجب أن يحصلها القارئ، وهي:

- لا كمال لغوي لأي خطّ.
- الخطّ قابل للتطوير، فهو من اصطلاح البشر.
- مرّت كل اللغات بمراحل تحسين خطوطها.
- الاستفادة من تجارب الشعوب في هذا الأمر.
- تقادي استعمال الزوائد في ذات الحروف: Cédilles et diacritiques والأفضل خلق حروف إضافية.
- مراعاة السهولة والبساطة والتمايز والاقتصاد.
- ومن هنا فإنّ خطّ التيفيناغ هو الشكل الذي توسم به هذه اللّغة، فلا يجب أن تكتب بغيره، إذا قصد من وراء إحيائها إعطاء صبغتها الشخصية، فالإنسان في الحقيقة ليس مستعداً لتغيير منظومته الرمزية وتبني منظومة أخرى، وإلاّ ما الفائدة إذن من البحث في الهوية والشخصية إذا لم تظهر في رمزها. الرمز ليس ديكوراً بل هو الشخص والهوية والميزة التي تعرف عن طريقها، فكما تعرف اللغات برموزها، يجب أن تعرف الأمازيغية بما يلقها. ولقد أبانت التجارب التي مرّت بها أمم قبلنا حاولت تغيير رسمها فنالت نكراً من مجتمعاتها. فهذه الصين التي عرفت التجربة في سنوات الأربعينيات من الألفية السالفة حين أجبر اللسانيون الدولة على تغيير رسم لغتهم بدعوى أنّه معقّد ومتخلف ولا يساير المستجدات المعاصرة، ومن الضروري الالتجاء إلى الرسم العالمي وهو الرسم اللاتيني. ولقد سار المشروع حوالي خمس سنوات، وصدرت صحف بالحرف اللاتيني. لها انتشار واسع لكنّ الصينيين عزفوا عن الرسم الجديد حتى أجبروا الدولة على التراجع عن قرارها والعودة إلى الرسم القديم الذي

يحمل هويتهم وفكرهم. ونفس الشيء بالنسبة لإيران لما أمر الشاه حذف كل ما له علاقة بالعربية في اللغة الفارسية، وجاء كتابه بمراسيم لإمضائه، فحاول قراءتها فلم يستطع، فاستفسر عن السبب فأجيب: نزعنا كل ما له علاقة بالعربية فهذه هي الفارسية، فقال: ماذا بقي منها إذن، اعدلوا عما أمرتكم. وهكذا نرى أن كل تغيير لغوي كما نعلم "يقتضي تغييراً اجتماعياً، والتغيير الاجتماعي لا يحدث بصفة عامة إلا في بنية المجتمع بأكمله"¹ ولكي يحدث التغيير في بنية المجتمع يحتاج إلى مجتمع جديد، فهل هذا ممكن؟

ولدرء هذه النقائص والاختلافات يتعين على المحليات أن تدرج في المنهاج التربوي بصفقتها وسيلة لتلقين مواد ثقافية بشرط التكافؤ بينها جميعاً، كما تفرض المعطيات الحالية ضرورة العمل على ترقيتها. إن الأمازيغية التي تلقب بالبربرية لها لهجات متعددة، وتغطي مساحة أربع عشرة دولة في العالم، وتشكل لغة التخاطب اليومي، لقيت كل المنع والقطيعة، وانجر عن ذلك تهيج سالب لدى ناطقيها (الحركات البربرية). وإنها إذا لم تأسس قريباً سيتم استيعابها في غضون العولمة والمنافسة اللسانية، ولكي يحصل تعميمها وطنياً يجب أن تكون ممأسسة؛ لأن اللغة التي تحرسها المؤسسات تستعمل بالأساس خطأً وشفاهياً داخل الفضاءات الرسمية. ولذا يستلزم خدمتها على المستويات التالية:

1- المستوى الأول: تضطلع به الدولة، والمطلوب تحديد المستوى اللغوي المطلوب الوصول إليه ولمن يقدم.

¹ - نور الدين محمد دنياجي "ماضي اللغات بالمغرب أو الأصول لتشكيل الهوية والشخصية المغربية من زاوية لغوية" مجلة جامعة الحسن الثاني بالمحمدية. المغرب: 2002، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة الندوات، رقم 14، ص 28.

2- المستوى الثاني: لغوي/ لغوي اجتماعي. يضطلع به رجال علم اللّغة العام وعلم اللّغة التطبيقي. ويتحدّد في ضوئه: نوع المادة التي تقدّم، والكمّ المطلوب، وعند أيّ مستوى تقدّم.

3- المستوى الثالث: لغوي نفسي تعليمي. وتضطلع به التربية والتعليم - التربويون والمدرسون - ويحدّد في ضوئيه: المادة المطلوبة، وكيفية التقديم¹.

وفي آخر هذه النقطة لا يجب أن نكون مثل ذلك الدبّ الذي أحبّ صاحبه، فلما أراد إبعاد ناموسة عن وجهه رفع حجراً وضرب به رأس صاحبه فأرداه قتيلاً، أو ما يلقب بالحبّ الأعمى. إنّ مسألة الأمازيغية ليست ملكاً لنا فقط فلها ربّ يحميها، ولها دول تتلاعى بها، فالقضية لا تخصّ الجزائر، فما بالك بالمغرب الذي يشكّل 65% من الناطقين بالأمازيغية ولم تطرح القضية بنفس الحدة التي طرحت عندنا. فلنحذر من الأخطاء القائلة، مثل تبني القضية لدرجة المغالاة، أو البحث عن شرعية تاريخية مغلوطة، أو النزوع نحو إقصاء الآخر، أو العيش في الأحكام الطوباوية. نعم للاهتمام بالأمازيغية التي هي لغة بلاد تامرغا، نعم لتشجيع الإنتاج والإبداع في مختلف مجالات المعرفة، وإعطاء حقّها في وسائل الإعلام العمومية. ولا مانع في هذه النقطة من الاستفادة من تجارب البلدان التي عرفت نفس الوضع، ولنأخذ على سبيل المثال لغة إيرلندا Galic لغة السكان الأصليين لبريطانيا ومنها خرجت اللّغة الإيرلندية الحديثة، وبها يكتب الأدب وتصارع من أجل مخالفة اللّغة الإنجليزية. وفي الربع الأول من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين اعترّف بها وأصبحت لغة المدرسة والتداول في أواخر القرن التاسع عشر وجد الإيرلنديون أنّ لغتهم القومية كانت على وشك أن تنتهي، وكان معظم الناطقين ينتهون، لتسود الإنجليزية

¹- البدراوي زهران "ازدواجية اللغة وضرورة رسم سياسة لغوية" مجلة مجمع اللغة العربية. القاهرة: 1989، الجزء 65، ص97.

الحالية، كما سادت في إسكتلندا. فدعوا إلى حركة إحياء وبعث جديد للغتهم باستخدام الأدب وسيلة للإحياء، فأخذوا يكتبون بها أساطيرهم القديمة وقصصهم الشعبية، ودعا أبرز قادة حركة البعث اللغوي وهو الشاعر Wiliam Butter Yeats إلى كتابة المسرحية باللغة الإيرلندية لأنه كان يعتقد (وأثبت الزمن صحة اعتقاده) أن المسرح هو المكان الأنسب لتعميم لغة الشعب بين أوساطه المختلفة. وقد نجح الإيرلنديون فعلاً وبما لم يزد عن عقدين من الزمن بجعل كل مواطنهم وخاصة الأطفال يتحدثون اللغة الإيرلندية. علماً أن السنوات الأولى كان الطفل الإيرلندي يدرس الإنجليزية صباحاً في المدارس الرسمية، ويدرس الإيرلندية خفية في الكهوف والوديان بعيداً عن أعين السلطات.

خامساً: تدريس اللغات الأجنبية: إن القضية جدّ شائكة، ولذا أرى أن الحوار الوطني سوف يسدّ كثيراً من الفراغ في هذه النقطة، كما يتحمّل المجتمع كلّ التبعات التي تنتج عن هذه الظاهرة. ولكن يجب أن نعلم من البداية بأن المعرفة باللغات شيء هام، ولكن لا يعني أنه التقدّم والحضارة، فلا تلازم بين إتقان اللغات والقدرة على الإبداع ودخول عالم الحضارة، اليابان من الدول الأسبوية التي يقلّ الاهتمام باللغة الإنجليزية ولا تلقى عندهم الاهتمام، ولكنهم متقدّمون بلغتهم، ولذا أريد الإجابة عن السؤال التالي: هل الازدواجية اللغوية شيء مفيد؟

أريد التفرقة بين مصطلحين أساسيين هما:

الازدواجية اللسانية: والتي تعني **البينية اللغوية** والتداخل والاندماج وهي أمور تلقائية منذ الفتوحات فلا قهر لغوي قد أحدث، وإنما حصل الميل لصالح العربية دون كره، فالعربية والأمازيغية لم تصبحا في عرفنا الآن لغة عربية واحدة، ولغة أمازيغية أصلية، فهما من شجرة واحدة، أصبحتا لغتين مندمجتين

ومتراكبتين، تجانست بنياتهما المعجمية في ثنائية تحليل إحداها على الأخرى في سياق اعتراف المجتمع الجزائري بانتمائه إلى مرجعيته الحضارية: الأمازيغية والعروبة والإسلام، والفرق بينهما في التوزيع الوظيفي فكان بينهما تقسيم أدوار؛ خط الأصالة في البيت وخط التناقف في المدرسة، وبذلك أنتجتا تاريخاً وحاضراً مسبقين للتناغم والانسجام والاستقرار اللغوي، ومن وراء ذلك حدثت إستراتيجية التجانب Juxtaposition السلمية مكونة ثقافة إسلامية ركيزتها اللغة العربية؛ لغة القرآن الكريم. ولقد حصل هذا في أكثر البلدان المفتوحة، وهي نتيجة حتمية لذلك؛ فمحت العربية القبطية في مصر والبونيقية في الشمال الإفريقي والنبطية في العراق واللاتينية في الشام¹ وغلبت بغلبة أصحابها الحاملين للدين والحضارة، وسادت في كثير من أطراف البلاد، وفرضت نفسها لساناً، وبقي اللسان الأمازيغي في الشمال الإفريقي محتتماً بالجمال والمناطق الصحراوية ممّا جعله ينقطع عن المراكز الرئيسة فتحدث القطيعة بين الأهالي، وينجرّ عن ذلك لسان ثابت محلي بعيد عن كلّ عوامل التطوّر، حتى أصبح تكلمات محلية، ولا يقع التفاهم بين أهاليه الأصليين. ولكن هذه التشكيلة ولّدت تعدداً مريحاً، مثلما ظهر في الدارجات التي لم تعرف الصراع بين مستواها الأول والثاني، بل لكلّ من المستويين حالات توظّف إحداها بدل الأخرى.

إنّ الدارجات من (الازدواجية اللسانية) كذلك فهي ثابتة الوقوع وملازمة للوجود اللغوي ذاته، وليس فيها ما يزعج أو يندّر بقيام الساعة، ولم تطرح سابقاً كمشكلة يجب القضاء عليها، "من الثابت علمياً أنّ العاميات تقوم في لحمتها وسداها على العربية الصحيحة، وهي متفرّعة عنها، غير أنّ العاميات تقوم في لحمتها وسداها على العربية الصحيحة، وهي متفرّعة عنها، غير أنّ تطوّراً ما

¹ - عبد السلام هارون "لغة القرآن محت القبطية في مصر والبونيقية في الشمال الإفريقي والنبطية في العراق واللاتينية في الشام" مجلة اللسان العربي. الرباط : 1969، العدد6، ص 219.

أصابها في الجانب الصوتي وجانب المتن¹ " وتحدّث عنها العرب قديماً عندما بدأت تحصل التداخلات اللغوية التي أدّت إلى سوء الأداء بما يسمى بظاهرة اللحن في الفصحى. كما تحدّث عنها فيرجسون لما استعمل مصطلح Diglossia ويقصد بها كلّ مجتمع يستعمل لغتين مختلفتين في المعاملات الداخلية اليومية، ولا يستطيع الاستغناء عن إحدى اللغتين ولو لفترة انتقالية وفي الستينيات أضاف علماء آخرون شروحاتاً إلى Diglossia حتى اقترب من الازدواجية. كما عمّق المفهوم عند حديثه عن الثنائية، ورأى بأنها ظاهرة اجتماعية محضة لا قدرة للأفراد على تفاديها للضرورة التواصلية بين الناس التي لا تتمّ في جميع الميادين إلّا بواسطة اللغتين معاً، وكلّ واحدة تختص بميادين معيّنة.

2- التعدّد اللغوي: كلّما يتبادر إلى ذهننا التعدّد اللغوي إلّا وتأتي اللّغة الفرنسية في المقام الأول، وهذا شيء طبيعي لما للغة الفرنسية من موقع في الساحة الثقافية وفي ذهنية الجزائري، وخاصة عند النخبة، ولكن يجب الإقرار بأنّ الفرنسية في الجزائر بين تيارات عديدة: تيار تقليدي واعي يؤمن بالهوية؛ وهم أولئك الذين يقدّسون العربية ويحبون أن تكون اللّغة اليومية العادية، إلّا أنّه لم يدرسوها جيّداً؛ لأنّ دراساتهم كانت في مدارس الفرانكوإسلامية وقد تشبّعوا وطنية، وهم الآن لا يتنازلون عن لغة خبزهم الفرنسية (مزدوجون) وهم قلة. تيار عروبي معارض يرى فيها لغة العدو بالأمس فلا بدّ من إقصائها مهما كان الثمن عن طريق التعريب، والعربية هي العامل الموحد للجزائريين. ويرى هذا التيار بأنّ الفرنسية ليست خشبة الخلاص من غريق التخلف، فهي لغة ثانوية ضمن اللغات العالمية المتقدّمة (أحادو اللّغة) وفي هذا التيار هناك من يهرف

¹ - البدراوي زهران "ازدواجية اللغة وضرورة رسم سياسة لغوية" مجلة مجمع اللغة العربية. القاهرة: 1989، الجزء 65، ص95.

بما لا يعرف فيلحق أبلغ الضرر بالعربية التي يدافع عنها. تيار منتفع نخبوي وينشد أن لا تنقطع اللغة الفرنسية من الجزائر لأنه لا يتحكم إلا في الفرنسية ولا ينظر إلى العالم إلا من خلال الفرنسية، ولا يقرّ بالعولمة اللغوية التي تلقي بالفرنسية في أسفل اللغات الراقية. وهؤلاء ينظرون إلى الفرنسية على أنها لغة مقدسة كأنها لغة المسيح، وكلّما تمطر في الشانزليزيه يرفعون المظلات في الجزائر، ولا يتابعون إلا الفضائيات الفرنسية فقط (أحادو اللغة). تيار موضوعي يرون بأن الفرنسية لغة العلم والحضارة ونافذة للعصرنة لا يمكن الاستغناء عنها، ولكنها تبقى في الدرجة الثانية بعد العربية الرسمية (المزدوجون). وتيار بيني يرى في الفرنسية لغة العصر إلا أنها لغة متخلفة قياساً باللغات الأجنبية الأخرى، فيطرح بديلها اللغة الإنجليزية (ثلاثيو اللغة). تيار مبهور بالعمى الحضاري؛ فالفرنسية عندهم لغة السياحة والقانون وفرنسيا بلد الجنّ والملائكة، وبلاد الحجّ والريحان، والفرنسية لها باريس تحميها (لا يتحكم في أيّة لغة) وهؤلاء لا عدّة لهم ولا بضاعة ولا صناعة بل لهم التأثير في القرار. وقد نسلم أو لا نسلم بأنّ للفرنسية دوراً خاصاً في المحيط اللغوي الجزائري، فهي اللغة الرسمية استعمالاً لا دستورياً، فيها سحر الاستعمار الذي يلکم بالقفار، وهي لغة الخبز والترقية الاجتماعية في واقعنا الحالي، وهي عالم سحري وتفتح وسياحة. ونشهد الآن 8 مليون صحن لالتقاط القنوات الفرنسية، وشمال إفريقيا متشبعة بالثقافة الفرنسية، فماذا قدّمت حضارياً، و130 سنة من الهيمنة في الجزائر باستعمال الفرنسية، فهل تقدّمت الجزائر كما تقدّمت فرنسا، و29 دولة إفريقية في الحماية الفرانكوفونية، فهل خرجت من التخلف... ولكن التحالف معها أكثر من ضروري كما يرى عبد السلام المسدي: "ولكنّا اليوم مدعوون أن نتخذها حليفاً استراتيجياً،

بعيد المدى فنستنبط معها عقد شراكة بكل فوائضه القيمة المربحة¹ ". وبعد كل هذا هل يمكن للازدواجية النجاح في ظلّ هذه التيارات المتجاذبة، ذلك ما لا يمكن أن نتأكد من الأمر؛ لأنّ التعريب مسّ كثيراً من القطاعات، والعربية توغّلت في فكر وثقافة الجزائري، كما لم تظهر لنا التجارب العربية نجاح مسألة الازدواجية لا في تونس ولا في المغرب؛ بل فشلت هذه التجربة بتاتاً في لغة التعليم بالمغرب الأقصى²، رغم الأشواط المعتبرة التي قطعتها، وترتفع الآن أصوات المثقفين والبرلمانيين المغاربة تنادي بتعجيل التعريب الكلّي، كما تتوسّع العربية بشكل علني في البلدين، فكيف ندخل هذا الميدان ولم نعدّ أرضية لذلك، علماً أنّ نسبة النجاح قليلة.

إنّ الازدواجية اللسانية/اللسنية لا خطر عليها، فهي طبيعية كائنة لا تنقرض، ولا يمكن التحكم فيها، ولا يستطيع المخطّطون اللسانيون الحدّ من مساحتها، بل عليهم دراستها وتحليلها واستخراج البنيات المتداخلة لفهم هذه الآلة العجيبة، وهي اللّغة الطبيعية. وأما التعدّدية أو الثنائية اللغوية، والتي تكون أحياناً رسمية فلها محاذيرها الكثيرة، ومن هنا يستشار أهل الرأي عند تحديد السياسة اللغوية. إنّ تنظيم مجالات استعمال اللغات الأم أو اللّغة المحلية بصورة موضوعية عادلة يستلزم تخطيطاً يضع التصرّور الكامل للحركة اللغوية للغة المنشودة داخل طبقات المجتمع بفئاته المتنوّعة والمراحل التي تحتاجها كلّ فئة، وكيفية اختيارها، والمادة اللغوية التي تقدّم لها ووسائل تقديمها، وطبيعة الإجابة اللغوية التي سيصل إليها متخرّج كلّ مرحلة من مراحل التعليم، وصدق حاجة المجتمع لتعلّم لغة أجنبية.

¹ - عبد السلام المسدي، العولمة والعولمة المضادة، ط1. مصر: 2000، ص 395.

² - إدريس الكتاني "كيف فشلت تجربة الازدواجية في لغة التعليم بالمغرب العربي" مجلة اللسان العربي. الرباط: 1965، العدد3.

فهل الازدواجية شيء مفيد؟ أودّ أن أشير إلى أنّ الازدواجية لها وجه جيّد، كما أنّ لها أوجهاً غير جيّدة. ولكن نحن الآن ضمن واقع تعددي، فما العمل؟ إنّ تخطيط سياسة لغوية تعتمد الاهتمام باللّغة المشتركة ضرورة قصوى وهو اختيار لا بديل عنه، ولا يعني به قهر لسان من الألسنة الوطنية. وإنّ اللغات الوطنية كلّها قد أوضحنا أمرها بضرورة التفتّح عليها والعمل على رقيها، وتدريسها فيجب أن يكون **فرض عين في مناطقها**. وأما اللّغة الأجنبية فلها شأن آخر.

ولقد بات من المسلم به أنّ واقعنا يمتاز ببعض المعطيات التي يجب أن نلّم بها، وهي: وجود اللغات المحلية وارتباطنا بالعالم العربي والإسلامي والإفريقي والمتوسطي، وما للغة الفرنسية من أثر في المجتمع الجزائري أضف إلى ذلك ما تفرضه التحدّيات المعاصرة من أنّ التفتّح على اللغات بمنهج براغماتي أكثر من ضروري؛ لأنّ اللغات تفتح لنا آفاق الإطار المحلي إلى الخارج والعالمية بغية استكناه حضارات الشعوب وعلمها وتقدّمها ويستحسن الاطلاع على علومها بلغاتها أفضل من ترجمتها، فالترجمة مهما تكن راقية فهي ناقصة. إنّ اعتماد اللغات الأجنبية هي فكّ العزلة اللسانية عن المجتمع والتواصل مع غيره، ومن يتفتّح على غيره يخرج من فقره. وأمام هذا تعتمد الشعوب في تخطيطها اللغوي على اللّغة الأجنبية حسب الحاجة إليها، وتعبّر عن تصوّر وطموح المجتمع، والقيم الحضارية والمحلية للمجتمع، وتتلقى بصورة خاصة، بعدما يناقش الجميع أمرها.

هل التعدّد اللغوي يحلّ مشاكلنا اللغوية؟ لا شك أنّ استعمال لغة واحدة في البيت والشارع والمدرسة لهو المثال وهذا غير موجود حتى في الإنجليزية؛ فإنجليزية أمريكا تختلف بعض الخلاف عن إنجليزية بريطانيا، كما أنّ العصر

يطرح علينا جملة من التحدّيات، فهل يمكن تسويق سياسات لغوية مبنية على دولة واحدة وطن واحد ولغة واحدة. إنّ التعدّد اللغوي في الجزائر يفرض نفسه أكثر من ذي قبل، ويمثّل الاختيار الأمثل بالنسبة للنخبة. ولكن ما هو التعدّد المنشود. تحدّث Fischman عن أصناف الازدواجية أو التعدّدية وحصرها في ثلاثة نماذج أساسية وهي:

• النموذج التعويضي المرحلي الذي يرمي إلى إدماج الطفل في الثقافة السائدة.

• النموذج الذي يرمي إلى الاحتفاظ بالّلغة المستضفة.

• نموذج الإثراء وهدفه هو توسيع آفاق الفكر والعاطفة عند المتعلّم.

فإذا كان العنصر الأخير الذي من يعمل على الإثراء فهو مقبول وتعمل به كثير من البلدان، وكما يقال: جميل أن نتعلّم التي تثري لغتنا وتنميها، ولكن ليس على حساب لغاتنا الوطنية، أن نقبل بالازدواجية غير المتوحّشة كما قال جولبير غرانغيوم، وهي ازدواجية بقاء اللّغة الأجنبية أجنبية، أضف إلى ذلك ضمان المحصّنات الإنسية من هوية واحد ولغة رسمية تعلو ولا يُعلّى عليها، ولغة أجنبية يُفاد منها. وتقادي كلّ المشكلات التي تسببها الثنائية اللغوية من الغربة اللغوية والصراع الثقافي، ومشاكل التعليم والاتّصال؛ لأنّ هناك تعدّلات لسانية قاتلة ومهلكة ومتوحّشة، تعمل على فصل الطفل عن هويته، فيقع فريسة أفكار معادية لكلّ ما هو وطني بدعوى العصرية "الخطر في الثنائية المفبركة في التعليم، مع لغة أجنبية ينظر إليها المتعلّم على أنّها لغة النّقْدَم والرقى الثقافي والعلمي، فتكون النتائج سلبية على هوية المتعلّم، وطاقاته التعبيرية والإدراكية والنفسية، والخطر كذلك في محيط ثنائي اللّغة مع امتيازات اجتماعية وتشغيلية

واضحة للثنائيين، فتصبح اللّغة الأجنبية مرجع الثقافة والرقى العلمي والتقني، والمقياس لكلّ ما هو من مرتبة عالية¹.

يقال عن الجزائريين بأنّهم مزدوجو اللسان، وهذا صحيح، بل هو سمّتهم وإرادتهم القوية والتاريخية لمعرفة اللغات الأجنبية، ويبدو أنّ هذه الإرادة ورثناها عن أجدادنا حيث تقاطعت على ألسنتنا مختلف اللغات التي استقرّت في شمال إفريقيا، ولكن لا يعني هذا التسامح في اللّغة الأم، فإذا كان استعمال الإنجليزية مسموحاً به في ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا، فإنّ ذلك لا يمنع اللغات الرسمية لهذه البلدان من أن تستمر في لعب دورها الكامل، رغم سيطرة الإنجليزية فعلياً في قطاع المعلومات والاقتصاد. ولا شكّ أنّ قضية التعدّد اللغوي في الجزائر ضرورة قصوى ما كان مترناً حيث يكون مركزه اللّغة الوطنية الرسمية، وعند ذلك يمكن قبول التعدّد المبني على التسامح والمساواة بين الثقافات والمحافظة على العادات والقيم الإيجابية، والأرضية الوطنية المشتركة. لا تعددية تعمل على تغذية الفروق التي من شأنها رفع حظوظ الجماعات لحساب جماعة أخرى، ولا ينبغي أن يكون عائقاً في درجة الانسجام الوطني، ولا يكون سبباً لاعتماد مشروع طموح وصعب قد يخلّ بالاندماج الوطني والتناغم المجتمعي.

أبانت تجارب البلدان المتّزنة في الازدواجية ضرورة الاهتمام في المقام الأول باللّغة الأم، وإتقانها جيّداً، وهذا بعد الإغماس اللغوي الجيّد "والتعدّد اللغوي يجب أن يسبقه إغماس لغوي للطفل في اكتسابه اللّغة الأم لتلافي الانعكاسات السلبية للازدواجية، والشروع في تعليم اللغات الأجنبية في سنّ لاحقة متأخّرة (ابتداء من الثانية عشرة، أو التاسعة في أحسن الظروف)²". وهذا ما أكّده

¹- عبد القادر الفاسي الفهري "ملكة اللغة العربية في وضع الازدواج والتعدّد" مجلة قضايا استعمال اللغة العربية في المغرب. الرباط: 1993، مطبوعات الأكاديمية الملكية المغربية، ص 87-89.

²- عبد القادر الفاسي الفهري، اللغة والبيئة. المغرب: 2003، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء، رقم 18، ص19.

سترن: ليس هناك دليل نفسي على أنّ التعلّم المبكّر للغات الأجنبية يؤدّي إلى نتائج أفضل من تأخيرها بعكس ما هو معتقد، فبإمكان الفرد أن يتعلّم لغة أو لغات أخرى بعد إتقان لغته الأم، وذلك في إطار مناهج تختلف باختلاف الأهداف المتوخاة من تعليم اللغات الأجنبية الأخرى وتعلّمها. كما أنّ التعدّد ذو كلفة اقتصادية، وكان على المجتمع الجزائري أن يستشار كي يتحمّلها، فلقد أبانت تجارب البلدان التي مرّت بهذه المرحلة أنّ البلد الناجح هو البلد القوي اقتصادياً والقوي في الترجمة البشرية الآلية. وتسعى البلاد المزدوجة اللّغة إلى إعادة النظر في منظوماتها التربوية والعودة إلى الأحادية، نظراً للكلفة والمشاكل الناجمة عن هذا التعدّد. ويكفي أن نضرب مثلاً للاتحاد الأوروبي الذي لم يلتزم شمله بسبب التعدّد اللغوي بين المجموعة الأوروبية، وكان ذلك عقبة أساسية تحول دون انصهارها في كيان موحد، ممّا جعله يعترف بالتنوّع اللغوي، واضطر إلى اتّخاذ اللغات الوطنية الرسمية لغات رسمية في أجهزتها، وعزف عن اللغات المحلية مثل: الكاتلان والباسك. وتورقه الآن الميزانية الضخمة التي ينفقها على هذا التعدّد 60% منها تذهب للترجمة ولذلك يسعى لترسيم ثلاث لغات فقط (إنجليزية فرنسية ألمانية) على المدى المتوسط، مع تقديم كلّ لغة تنازلات على الصعيد الرمزي ومبدأ اللامسيطرة على المصطلحات، وفي حدود سنة 2050 م يحصل البقاء للغة واحدة، وهي الإنجليزية.

وفي مقام آخر ثبت ثبوتاً قاطعاً بأنّ الازدواجية تؤثر سلباً على كثير من الصّعد، فالتجانس اللغوي عامل تقدّم ونجاح، كما أنّ البلاد المجزأة لغوياً بلاد فقيرة دائماً¹ ولا جدال بأنّ عدم التعدّد أفضل من التعدّد، وأنّ "التفرد اللغوي له انعكاساته الإيجابية على النسيج الاجتماعي فهو باب يسدّ كلّ الفتن، وهذا ما

¹ - فلوريا كولمباس، اللغة والاقتصاد، ترجمة: أحمد عوض، مجلة عالم المعرفة. الكويت: 2000، ص 48.

نلاحظه في كثير من الدول بدءاً من فرنسا وأمريكا وإنجلترا. ويجب أن نعرف بأنّ التعدّد له مساوئه التي يمكن إجمالها:¹

- التأثير السلبي على الأنساق العقديّة والتفكّك الاجتماعي.
- ضعف المستوى التعليمي نتيجة الخلط الذي يحدث أحياناً ويؤدي إلى التشتّت الذهني، والتباس في المفاهيم و عسر في الكلام.
- الكلفة الاقتصادية الكبيرة التي لا يمكن أن تتحمّلها ميزانية الدولة، وينجرّ عن ذلك تحمّل المواطن كلفة تدريس أولاده بالمقابل، فينتج التسرّب المدرسي، وتنقشئ الأمية.
- الفوضى اللغوية التي ربّما يكون سببها إلى الهروب من اللغات الأم، والالتجاء إلى اللّغة الأجنبية كبديل لحلّ المشاكل اللغوية.
- التأثير السلبي على الوحدة الوطنية، وقد يخلق دعوة الكونفدراليات الجغرافية اللغوية.

- التمييز بين اللغتين: لغة النخبة/ لغة الدهماء، وهذا يؤدّي إلى إضعاف المناعة الثقافية، والتكتّل الوطني، حيث ويظهر الخلاف، فيرقي الأتباع معززين بما يحملون من لغة أجنبية، ويهمّش المحليون كما تهمّش لغتهم.
- التجارب التي عاشتها كثير من البلدان فلا هي تقدّمت بلغة غيرها بعدما انسلخت من لغتها بحكم التعدّد اللغوي حصلت التبعية اللغوية، وهي أساس التخلّف الشمولي، وهذا ما يلاحظ على الدول التي أبدلت لغتها بلغات أجنبية: الإنجليزية في بنغلاديش وزامبيا ونيجيريا، والفرنسية في السينغال والنيجر وتشاد وتونس... كما أنّ يوغسلافيا وكندا وسويسرا والهند وبلجيكا لم تعرف تقدّماً مقبولاً

¹- محمد الأوزاعي "التعدّد اللغوي له انعكاساته على النسيج الاجتماعي" مجلة جامعة محمد الخامس، ط1. الرباط: 2002 منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، رقم 36.

بحكم ازدواجيتها مثل البلدان الأحادية اللّغة، وما كان يصلح لكندا مثلاً ليس من الضروري أن يصلح للجزائر .

• الازدواجية تعتمد على الترجمة في المقام الأول، فهل يمكن للبلدان المتخلفة مسايرة الجديد، أليس ذلك هو الطريق الذي يعمل على ظهور الثقافة اللفظية، وضياح البحث العلمي الأكاديمي.

• التعددية في كثير من الأحيان تكون عشوائية، تعدّد متشابه يعيد نفس الأمور بلغتين مختلفتين، فما الفائدة من اعتماد ضربين مكرّرين، وهنا يقع التشبّه الحقيقي، فيذهب ذهن الطالب دائماً إلى الترجمة لا إلى إدراك المفاهيم. وهكذا نعلم أنّ الازدواج اللغوي له صعوباته وأخطاره التي تمسّ محاسنه، ثم هل أنّ تعلّم لغة أجنبية يمكن التحكّم فيها مثل أهلها، وهل البلدان التي اتّخذت الفرنسية لغة ثانية أو رسمية تقدمت، والبلدان التي اتّخذت الإنجليزية حلّت مشاكلها. إنّ الازدواجية لا تخرجنا من تخلفنا، فنحن نعيش ازدواجية منذ بعثنا للوجود، وبقينا متخلفين، وما الفائدة من التحدّث بالكريول Le créole ولا تخدمنا في جانبها العلمي. ثمّ ما دور اللغات الرسمية والوطنية في إطار العولمة الذي تذوب فيها أكثر اللغات. ولا أرى من بديل في هذا المجال إلّا اعتماد تخطيط نفعي يكون كما يلي:

الأخذ بمبدأ النفعية في تدريس اللغات: إنّ مبدأ النفعية يقتضي اعتماد

عناصر اللسانيات التطبيقية في هذا المجال، وهي:

- البراجماتية: اعتماد ما هو وظيفي.

- الانتقائية: القيام بعمليات اختيار وظيفية على ضوء معايير النجاعة

والمردودية.

- الفعالية: إيجاد الوسائل التربوية الأكثر فعالية في تعليم لغات المنشأ واللغات الأجنبية، وذلك بانتقاء المتون الوظيفية الملائمة.

وإنّ كلّ سياسة لغوية وثقافية موجّهة نحو التقدّم، تستدعي اعتماد النفعيّة التي نضمن فيها حقوقنا الثقافية فاعتماد لغة أجنبية تخدمني كما تخدم لغتي الأم، كما نفرق بين لغة انفتاح وتطلّع وبين لغة هيمنة. فالعالم الآن يتقاسمه قطبان ثقافيان: الفرنكوفونية والكمونلثية. فأى لغة تعتمد؟ الفرنسية أم الإنجليزية. يجب أن نقرّ ونكون صادقين مع أنفسنا، فنحن نخطّط لما سيكون الجيل القادم، على فرض سنوات 2030 فما هي المتغيّرات اللغوية التي ستحصل في هذه العشرية، وما هي ملامح ابننا الذي يدرس، وما اللّغة المهيمنة. لا شك أنّ من أراد دخول الحضارة فلتعلّم الإنجليزية، فقطب الفرنكوفونية يتضاءل، ونجم الفرنسية يخبو، فلم لا نحسن الاختيار. وبودّي تأكيد مسألة تعليم اللّغة الأجنبية لتثبيت بعض الأمور، وهي:

• إنّ تعليم اللغات الأجنبية عامل مهمّ لعدّة اعتبارات، ولكن كان يجب في البداية أن نكون على بيّنة من خصوصيات تعلّم اللّغة الأجنبية في جوانب ثقافية وسياسية واجتماعية، فتجب الإجابة عن النقاط الأسئلة التالية: ما الهدف من تعليم اللغات الأجنبية؟ من يجب عليه تعلّم اللغات الأجنبية؟ متى يبدأ تعلّم اللّغة الأجنبية؟ ما هي اللّغة الأجنبية المختارة؟

• إن الهدف من تعليم اللّغة الأجنبية يرمي إلى مجموعة من الاعتبارات، ومنها كسر الحواجز الثقافية بين حضارته وحضارة اللّغة الهدف، وإشاعة روح التسامح، وإقامة تفاهم عالمي، أضف إلى هذا أنّها تساهم في توسيع مدارك التلميذ العقلية وتدريبه على الاستيعاب المتواصل للمعرفة. فجميل أن نتعلّم اللغات لكن ليس على حساب اللغات الوطنية، ومن هنا نادى بعض المهتمين

بتعليم اللّغة الأجنبية بعدم تعليمها للصغار خاصة؛ إذ إنّ التأثير وإن كان ليس ظاهراً إلا أنّ آثاره ستظهر على الشكل التالي:

- تقليل أهمية اللّغة الأم عند الطلاب.
- إمكانية تأثير اللّغة الأجنبية على اللّغة الأم لغوياً.
- إحساس الطلاب بالرغبة في التمكن من اللّغة الأجنبية¹.

• **وأما من يجب عليه تعلّم اللغات الأجنبية** فهنا الإشكال الذي نعيشه في الجزائر. إنّ النخبة الجزائرية والمتنفذين في الدولة ينادون بالتعريب، ولكنهم لا يعملون له بشكل علني، بل يحبذون أن تبقى الإدارة والعلوم تدرّس بالفرنسية. وهنا من واجب الدولة أن تعمل على تهيئة وإتاحة الفرصة للجميع في تعلّم اللّغة الأجنبية بطريقة علمية منهجية منظمة، يستهدف من ورائها التحكّم المتقن في اللّغة المتعلّمة، وهذا بعد الحصول على القدر الكافي في اللّغة الأصل، والتي لا يمكن التغاضي عنها كأساس يناله الجميع، وأما تعلّم اللّغة الأجنبية يكون لغرض نفعي لا غير "يتعلّم فيها اللغات الأجنبية لأغراض إجرائية وظيفية، بعد أن يكون قد ضلّع في لغة هويته وفكره وثقافته بصفة كافية لا تعيق نحوه"².

• **وأما متى يبدأ تعليم اللّغة الأجنبية** فقد أبانت أكثر الدراسات بأن الطفل يجب أن يستوعب في المقام الأول النسق اللغوي الصحيح والكافي، ويأخذ الرصيد اللغوي الذي يمكنه من التواصل والعدّ، فلا مانع من أن يأخذ اللّغة الأجنبية الأولى بعد ذلك. ويرى بعض علماء النفس أنّ الدماغ البشري مهياً لتعلّم اللغات حتى سنّ العاشرة، وبعد هذه السنّ فالدماغ يفقد مرونته وقابليته للتعلّم، كما تقتضي بعض المعطيات الاجتماعية أنّ تعلّم اللّغة الأجنبية في سنّ مبكرة

¹- إبراهيم عبد العزيز أبو حيمد "السنّ المناسب لتعليم اللغات الأجنبية" مجلة الدراسات اللغوية. السعودية: 2000، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، المجلد الثاني، العدد الثالث، ص215.

²- عبد القادر الفاسي الفهري "اكتساب اللغة العربية والتعلّم اللغوي المتعدّد" مجلة اللسانيات. الرباط: 1999، منشورات معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، المجلد4، العدد 1-2.

حيث يكون المجتمع ثنائي اللغة فقط، وفيه لغات عرقية عديدة، والحاجة وليدة لتوحد الأعراق. والمثال على ذلك ما يلاحظ في كندا ذي الثنائي اللغة الفرنسية والانجليزية. علماً أنّ تعليم أجنبية تختلف ثقافتها وحضارتها عن ثقافة وحضارة المتعلم فذلك ما يحمل في طياته خطراً كبيراً، ولكن المهم في كلّ هذا هو أن نعمل على تعليم اللغة الأجنبية في المرحلة الأساسية، باعتبار هذه المرحلة المناخ الصافي تتساكن فيه أكثر من لغة.

• وأما ما هي اللغة الأجنبية المختارة. فقد أوضحت بأننا لا يجب أن نكون نكرة في العالم، ونبقى ننشد ملكة اللغة الفرنسية في الوقت الذي تجاوزها الزمان، فلنكن نفعيين، رغم ما للفرنسية من علم، ولكن لا أرغب أن ينتج عن ذلك تهجين لغوي¹ يؤدي بلساننا إلى التبعية وإلى الانعكاسات النفسية أو الهيمنة الثقافية. فما دامت النفعية لا تعترف إلا بالملموس فلم لا نتبع الملموس، ولم لا نتبع لغة العصر والمستقبل، ولا يعني هذا أن نستبدل لغة أجنبية بلغة أجنبية أخرى، بل أن نستبدل أدباً بعلم، أن نستبدل لغة راقية بلغة أرقى، أن نستبدل لغة السياحة والعطور بلغة المال والبنزنسة، أن نستبدل باريس بلندن، فما المانع؟

ولا أقف في هذه النقطة والتي من خلالها يصنّفني القارئ بأني تابع للندن، بل في عموم اللغات الأجنبية أدعو أن نكون مثلنا مثل الآخرين، وخاصة الدول التي تربطنا علاقات العروبة والإسلام، وأكثرهم يستعملون الإنجليزية. والتي أهدفها هي الإنجليزية العلمية والتقنية، والوصول إلى الإفادة منها والعمل على إتقانها مثل الفرنسية. كما لا يعني هذا أن نطرح اللغات الأخرى، بل سألقي نفعياً دائماً لأقول: من واجب المدارس العليا ومراكز الترجمة أن تعمل على تخريج مدرسين ومترجمين حسب الخريطة الوطنية في مجال التعليم والترجمة لسدّ كلّ

¹ - عبد القادر الفاسي الفهري "ملكة اللغة العربية في وضع الأزواج المتعدد" مجلة قضايا استعمال اللغة العربية في المغرب. المغرب: 1993، مطبوعات الأكاديمية الملكية المغربية، ص172.

النقائص التي نعانيها في التواصل مع الغير، فلا يجب أن نكون أحاديي اللّغة الأجنبية، فعلينا تحديد خريطة اللغات المتقدمة والتي لنا ارتباط تاريخي وعلمي وحضاري ونفعي. وأرى في هذا المجال أن يدرّس مساق أو أكثر في كلّ اختصاص تستحوذ عليه اللّغة الأصل، وهذا بغية الرجوع إلى المصدر، والإفادة منها (اللّغة) في الترجمة.

- لا يمكنني أن أضلع في الأدب العربي دون إتقان لغة من اللغات الشرقية: الفارسية/العبرية/ التركية.

- لا أبداع في مجال القانون إذا لم أدرس الفرنسية.
- لا أكون مطلعاً على الإعلام الآلي إذا جهلت الإنجليزية.
- لا أتحكّم في علوم البحار إذا لم أفقه الإسبانية.
- لا أتحكّم في الصناعات الثقيلة إذا لم أعرف الروسية.
- لن أكون مختصاً في الديداكتيك إذا لم أفد من اللّغة الألمانية.
- لن أسحر قرائي بآيات العجائب إذا لم اطلع على الأدب الصيني بلغته.

- لن أكون لاهوتياً إذا لم اطلع على لغات الهنود...
- وفي آخر المطاف لا يسعني إلاّ تأكيد بعض الأمور، وهي:
- إقليمية اللهجات العامية أكبر حجة على عدم صلاحيتها، ولذا من الضرورة تدريسها إقليمياً.
- ضرورة التسليم بالازدواجية اللغوية، وهو واقع ملموس.
- ضرورة تركيز الأبحاث اللغوية في التداخلات بينها وبين العربية الفصحى.

- المستقبل للغة العربية الفصحى، فواجبنا الاهتمام بها: سياسيون وعلماء.
- العربية الفصحى هي المرشحة لبلوغ الهدف.
- لنا لغة واحدة، لا لهجات متعدّدة، وهذه الوحدة يسهل علينا تطويرها إذا صدقت النيات.
- السعي لوضع أطلس لغوي مغاري ومن باحثين مغاربة.

مسرد المصطلحات اللغوية وما يقابلها بالّغة الفرنسية حسب سياقها في النص¹

الأداءات المصيبة	=	Performance correctes
الأداءات الخاطئة	=	Performance incorrectes
الازدواجية اللسانية	=	Variante linguistique
ازدواجية قاتلة	=	Bilinguisme mortel
ازدواجية متوحشة	=	Bilinguisme sauvage
الاندماج الوطني	=	Intégration nationale
ترميز للوحدة الوطنية	=	Symbole de l'unité nationale
التسامح اللغوي	=	Tolérance ling(Egyptionisation)
التعدّد المنشود	=	Plurilinguisme souhaité
تعددية لسانية تراكمية	=	Plurilinguisme accumulé
التناغم المجتمعي	=	Symbiose sociétale
التلهيج	=	Dialectalisation

¹- وقع تركيزنا على المصطلحات الجديدة التي لم تدخلها قواميس اللسانيات، وخاصة الموحدة منها.

Diversité ling identitaire	=	• تتنوع لغوي هوي
Hybridation ling	=	• تهجين لغوي
Passion négative	=	• تهيج سالب
Equilibre positif	=	• توازن إيجابي
Equilibre ling	=	• توازن لغوي
Communication formelle	=	• تواصل رسمي
Communication nationale	=	• تواصل وطني
Communication brimé	=	• التواصل المقهور
Courant médian	=	• تيار بيني
Bilinguisme artificiel	=	• الثنائية المفبركة
Atlas ling	=	• الخريطة التعبيرية
Comportement ling authentique	=	• السلوك اللغوي الأصيل
Mondialisation ling	=	• العولمة اللغوية
Immersion précoce	=	• الإغماس المبكر
Immersion souhaitée	=	• الإغماس المنشود
Butin de guerre	=	• غنيمة حرب
Francisation	=	• الفرنسة
Espaces institutionnels	=	• الفضاءات المؤسّساتية
Efficacité	=	• الفعالية
Vernaculaire	=	• الكلام البلدي
Langues nationales	=	• الألسن الوطنية
Langue transnationale	=	• لغة قومية

Langue substrat/maternelle	=	• لغة المنشأ
Langues ethniques	=	• لغات عرقية
Langue hybride	=	• لغة هجين
Langues de grande diffusion	=	• اللغات ذات الانتشار الواسع
Institutionnalisation	=	• المؤسسة
Principe d'interférence	=	• مبدأ التداخل
Principe de réduction	=	• مبدأ التقليل
Principe d'hybridation	=	• مبدأ التهجين
Principe d'extension	=	• مبدأ التوسّع
Principe de pragmatique	=	• مبدأ النفعية
Variantes ling	=	• المتغيرات اللغوية
Corpus ling	=	• المتن اللغوي
Abrogation ling	=	• نسخ لغوي
Système ling	=	• نسق لغوي
Modèle d'enrichissement	=	• نموذج الإثراء
Modèle de substitution	=	• النموذج التعويضي